مجلة العلوم العربية والإنسانية

جامعة *القصيم*، المجلد (٥)، العدد (١)، ص ص ١-٨٣، (محرم ١٤٣٣هـ /نوفمبر ٢٠١١)

الثنائيات الضّدّيّة في نقائض جرير والفرزدق والأخطل وأثرها في أداء المعنى الشعريّ

د. عبدالرحمن أحمد إسماعيل كرم الدين

الأستاذ المساعد بقسم الأدب، كلية اللغة العربيّة

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة

Ismael663@hotmail.com

(قُدم للنشر في ١/٥/١٤٣٢هـ، وقبل للنشر في ١٩/٦/١٤٣٢هـ)

ملخص البحث. فنّ النقائض نصّ يحمل في طيّاته كلّ معاني التناقض والتنافر والتضاد؛ لأنّ هدفه الرئيس هو إعلاء الذات وكلّ ما يمتّ إليها بصلة، وتحقير الخصم وكلّ ما يتّصل به؛ فلذا حاول شعراء النقائض عامّة توليد المعاني المتضادة من الفضاءات الكبرى التي شكّلت ثقافاتهم الشعريّة؛ الفضاء التاريخي والاجتماعي والدينيّ. يحاول هذا البحث منطلقًا من إشارات النقاد العرب القدماء إلى التضاد وقيمته في أداء المعاني، ومفيدًا ممّا جادت به معطيات المناهج الغربيّة الحديثة في مفهوم التضاد الذي يتجاوز عندهم حدود الطباق والمقابلة إلى ظاهرة الحضور والغياب والصور المتنافرة والمفارقات وبعض أساليب الاستفهام والشرط والاستثناء وغيرها من التقنيات التي تتضمّن مفاهيم التضاد. تتبّع ظاهرة الثنائيات الضّدّيّة الجديدة اصطلاحًا، والقديمة مفهومًا وأداءً في نقائض جرير والفرزدق والأخطل؛ للكشف عن خيط مهمّ من الخيوط الدقيقة التي جعلت نصوص هذه النقائض ذات لحمة قويّة في بنيّتها ومعانيها.كما يحاول البحث بيان أثر هذه الثنائيّات المتضادة في توليد ديناميّة داخل نصوص هذه النقائض، وغير ذلك من الآثار الموضوعاتيّة والفنيّة لتقنية الثنائيّات الضدّيّة التي أسهمت إسهامًا فاعلاً مع غيرها من عناصر الإبداع الشعريّة الأخرى في جعل فنّ النقائض نصًّا أدبيًّا متجدّدًا بتجدّد المناهج الدراسيّة، وباختلاف زوايا النظر إليه.

مقدمة

الحمد لله هادي المضلّين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه الغرّ الميامين. وبعد:

فلم يزل شعر النقائض في العصر الأمويّ يمثّل مصدرًا أدبيًّا مهمًّا، ومنهلاً علميًّا قيّمًا يرفد الباحثين بموضوعات شتّى؛ وذلك لأنّه جاء عصارة عبقريّات شعريّة فذّة، وخلاصة تجربة إنسانيّة حافلة بأحداث عظيمة. وعلى الرغم من أنّ جانبًا من هذه النقائض وظّف فيما لا يخدم القيم الأخلاقيّة والدينيّة إلا أنّها ظلت بعامّةٍ تجربة شعريّة متفرّدة تخدم القيم الأدبيّة؛ الجماليّة والفنيّة الراقيّة على مرّ العصور. ويظلّ نصّ النقائض كتابًا مفتوحًا للدارسين سيما إذا تناولوه بمناهج علميّة جديدة، وأعادوا النظر في جزئياته وتفاصيله بدقّةٍ وتمحيصٍ.

هذا البحث يرجو صاحبه أن يكون واحدًا من البحوث التي حاولت أن تنفذ إلى ما وراء الأحكام الجاهزة والديباجات المعدّة في وصف هذا الفنّ؛ وذلك من خلال دراسة تقنيّات مهمّة وقيّمة في أداء المعاني الشعريّة، تمثّلت تلك التقنيات في الثنائيات الضديّة، هذه الظاهرة الجديدة اصطلاحًا، القديمة مفهومًا وأداءً.

يحاول هذا البحث الكشف عن الثنائيات الضّدّيّة التي تمثّل ظاهرة مميزة لفنّ النقائض، وعلامة واضحة في كافّة أشكالها، ابتداءً بالبيت، وانتهاءً بالقصيدة الكاملة، بل القصيدتين المتناقضتين معًا، حتى تركت هذه الظاهرة أثرًا واضحًا في لحمة البيت المفرد، والقصيدة كاملة، فضلاً عن دورها المتعالي في أداء المعاني الشعريّة التي ينشدها الشاعر؛ وذلك لأنّ تقنيّة الثنائيات المتضادة تتناسب وغاية النقيضة التي تقوم في أصلها على التناقض والتضاد والتنافر، وغير ذلك من المفاهيم العديدة التي يشتمل عليها هذا المصطلح.

ولمّا كان شعراء النقائض من الكثرة بمكان اكتفى الباحث بفحولهم الثلاثة جرير والفرزدق والأخطل ؛ لأنّهم يمثّلون الظاهرة ، وما يقال عنهم يمكن أن ينطبق على غيرهم من الشعراء. لقد فرضت طبيعة الدراسة على الباحث ألا يُعنى بغير الشواهد التي يرى فيها شيئًا من هذه الظاهرة الشعريّة ؛ فلذلك لم ينشغل بغيرها. كما أنّه حاول في كلّ موضع من مواضع هذه الظاهرة تبيان التقنية التي اتّبعها الشاعر في تحقيق التضاد ، وفي ذلك لم يحصر الباحث التضاد في مفهومه الضيّق المتمثّل في الطباق والمقابلة ، كما لم يحلّق به بعيدًا في عوالم بعض المناهج الغربيّة التي توسّعت في مفهومه حتى صار عندهم الشعر كلّه يقوم عليه ، وإنّما اختار الباحث سبيلاً وسطًا بين ذلك.

حاول الباحث تناول هذه الظاهرة وفق فضاءاتها الموضوعاتيّة ، وقد حصر هذه الفضاءات في ثلاثةٍ ؛ تاريخيّ ، واجتماعيّ ، ودينيّ ، ولا يعني ذلك أنّ هذه هي جملة الفضاءات التي استمدّ منها الشعراء مادّة ثنائياتهم الضدّيّة ، ولكنّها تمثّل – بطبيعة الحال – الفضاءات الكبرى ، والأطر العامّة التي داروا حولها ؛ وتوافقًا مع هذه الفضاءات الثلاثة جاءت هذه الدراسة في مباحث ثلاثة أيضًا ، جُعِل لكلّ فضاء مبحث ، مع الإشارات المتكرّرة إلى أنّ هذه الفضاءات لا تستقلّ بذاتها ، وإنّما تتداخل في كثير من المواضع ؛ لتداخل القيم التي تلتقي فيها.

تمهيد

لعلّ من المهمّ قبل أن نتناول ظاهرة الثنائيات الضّدّيّة أن نعرض في مهادٍ نظريّ لمفهومها ، وقيمتها الأدبيّة ، وما ورد من إشارات للأدباء والدارسين قديمًا وحديثًا إليها ، ثمّ بيان الوشائج التي تجمع بينها وبين النقائض ممّا جعل الشعراء يوظّفونها في أداء معانيهم الشعريّة.

الثنائيات الضديّة: المفهوم والقيمة الأدبيّة

لم تكن الثنائيات الضدّيّة من المصطلحات المتداولة في تراثنا العربيّ، ولا من المصطلحات الشائعة في الدراسات الأدبيّة والنقديّة الحديثة عند العرب، فهو مصطلح نشأ في أحضان البنيويّة. ولكنّه إن لم يكن مصطلحًا مستخدمًا في التراث فقد كان مفهومه مألوفًا في أفهام العرب، ومطروقًا في كثير من دراساتهم؛ وذلك لارتباطه بمفهوم التضاد ومفاهيم مصطلحات أخرى كانت معروفة عند القدماء، وفي الصفحات الآتية محاولة لضبط مفهوم هذا المصطلح، وتأصيله في التراث العربيّ، وبيان قيمته الأدبيّة والنقديّة.

أولاً: الثنائيات الضديّة في رؤى القدماء

تدخل الثنائيات الضديّة في دائرة التضاد، والتضاد كلمة ذات دلالة معلومة في المعاجم العربيّة القديمة والحديثة، فمادة "ضدد" كما ورد في لسان العرب لابن منظور " الضّدّ كلّ شيء ضاد شيئًا ليغلبه، والسواد ضدّ البياض، والموت ضدّ الحياة، والليل ضدّ النهار... "[١، ج٩، ص٢٥]. وقد بدأ وعي القدماء بقيمة التضاد وأثره في أداء المعاني من وقتٍ مبكّر، وبدا هذا الوعي واضحًا في مؤلفاتهم بعامّةٍ - وإن لم ينظّروا فيه تنظيرًا دقيقًا - ولعلّ خير من يستشهد به في السياق الجاحظ (٢٥٥هـ) الذي اتّضحت اهتماماته بالتضاد في معظم مؤلفاته، ويكفي أن ينسب إليه كتابٌ يحمل في عنوانه كلمة مشتقة من جنس هذا المصطلح، وهو كتاب "المحاسن والأضداد". وبعامّة يبدو الجاحظ "من منهجه في مؤلفاته - على وعي عميق بالتضاد، رغم أنّه لم يتناوله تناولاً نظريًّا، لكنّه - من الناحية العلميّة - وظّفه توظيفًا ينمّ عن مدى إدراكه لقيمة التضاد في إبراز المعنى"[٢، ص٢٢٤].

وقد عبّر البلاغيّون واللغويّون والنقاد القدماء عن التضاد بمصطلحات مختلفة، كالخلاف والأضداد والمقابلة والتناقض والمطابقة والتكافؤ[٢، ص ١٥- ١٨٧]. وتداخلت عندهم هذه المصطلحات جميعها؛ لأنّها كلّها تدخل في دائرة واحدة، وهي دائرة التضاد، مع تفاوت في الدرجة والترتيب والنوع؛ وذلك ما جعل كثيرًا من البلاغيين يحاولون دمجها وتوحيدها.[٣، ص٢٥] وقد ارتبط التضاد بلاغيًّا ونقديًّا ارتباطًا وثيقًا بمصطلحين من المصطلحات السابقة، هما الطباق والمقابلة، وقد حاول القدماء التفريق بينهما كثيرًا في جهود علميّة مقدّرة، وتفاصيل يصعب أن يحيط بها هذا البحث الموجز، ولكن يكفينا من القلادة ما أحاط بالعنق، ومن أراد القلادة كاملة فليراجع دراسات متعددة تناولت هذه الجهود، لعلّ أهمّها كتاب الدكتورة مني علي الساحليّ: "التضاد في النقد الأدبيّ مع دراسة تطبيقيّة من شعر أبي تمام".

فمن الإشارات الأولى التي تبيّن أنّ (الطباق) يُطلَق على ما يقع بين كلمتين من تضاد في المعنى، ما نسبه ابن المعتزّ (ت٢٩٦) في كتابه "البديع" إلى الأصمعي (ت٢١٦) في قوله: "فالقائل لصاحبه أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسّع فأدخلتنا في ضيق الضمان"[٤، ص٣٦] فقال ابن المعتزّ معلّقًا على ذلك: بأنّه " قد طابق بين السعة والضيق في هذا الخطاب" [٤، ص٣٦]والسعة خلاف الضيق كما هو معلوم في المعنى. فكأنّ الأصمعي أراد بذلك أن يشير إلى أنّ الطباق لا يقع إلا بين كلمتين صريحتين في الضدّ، دون أن تنزّل إحداهما منزلة الضدّ[٣، ص٢٦]بالمجاز ونحوه. وأقرّ ذلك ابن المعتزّ أيضًا، مع التوسّع في مفهوم "المطابقة"؛ لتشمل كلّ تضادٍ بسيطًا ومركّبًا [٥، ص٩٩].

وقد ذكروا المقابلة وأرادوا بها التضاد أيضًا، والمقابلة لغة " المواجهة"[١، ج٢، ص١٥]واصطلاحًا كما عرّفها قدامة ابن جعفر (ت٣٣٧) هي: " أنّ يضع الشاعر

معاني يريد التوفيق بين بعضها وبعضٍ، أو المخالفة فيأتي في الموافق بما يوافق، وفي المخالف بما يخالف على الصحة أو يشرط شرطًا، ويعدّد أحوالاً في أحد المعنيين، فيجب أن يأتي فيما يوافقه بمثل الذي شرطه، وعدّده، وفيما خالفه بأضداد ذلك، كما قال بعضهم :

فَوَاعَجَبًا كيفَ اتّفَقْنا فَنَاصِحٌ وفيٌّ ومَطْوِيٌّ على الغِلِّ غادِرُ

فقد أتى بإزاء كلّ ما وصفه من نفسه بما يضاده على الحقيقة"[٦ ، ص١٣٣]. يهمّنا من هذا الاستشهاد أنّ المقابلة لا تتحقّق ـ وفق تعريف قدامة واستشهاده ـ إلا بتضاد مجموعة كلمات بعضها مع بعض، أي أن يقابل بعضها بعضًا على الترتيب، على نحو ما استشهد به في البيت. فعلى هذا فتعدّ المقابلة بابًا من أبواب التضاد مثل الطباق، ولا يختلف المصطلحان أحدهما عن الآخر إلا في أنّ الطباق يكون بين كلمتين، أمّا المقابلة فتكون بين مجموعة كلماتٍ.

وقد توالت الإشارات وتتابعت الجهود في ضبط المصطلحات المختلفة للتضاد، سيما مصطلحا الطباق والمقابلة، ولكن دون إشارة واضحة ودقيقة إلى الدور الفاعل الذي يلعبه التضاد في أداء المعاني إلى أن جاء القاضي الجرجاني (ت٣٦٦هـ) فكشف عن القيمة المتعالية للتضاد الذي سمّاه المطابقة، وقال في ذلك : "وأمّا المطابقة فلها شُعَبٌ خفية، وفيها مكامن تغمض، وربّما التبست بها أشياء لا تتميّز إلا للنظر الثاقب، والذهن اللطيف" [٧، ص٤٤]. وهذه ملحوظة دقيقة تبيّن أنّ للقاضي الجرجاني نظرًا ثاقبًا، وذهنًا لطيفًا، استطاع بهما أن يتعرّف على مكامن التضاد الذي لا يأتي دائمًا ظاهرًا في صورتي الطباق أو المقابلة كما هو معروف من قبل، وقد تنبّه في آنٍ إلى أنّ للتضاد أثرًا كبيرًا في تشكيل الخطاب الأدبيّ، وذلك من خلال إشارته إلى الأشياء التي يتلبّس بها التضاد ولا يعرفها إلا النخبة أو الخاصّة في هذا العلم، وهم

الأذكياء الفطنون، أصحاب النظر الثاقب الذين ينقّبون عمّا وراء النصّ الظاهر، ويسعون إلى استكناه خفاياه ودلالاته. ويبدو أنّ القاضي الجرجاني كان مدركًا تمامًا أثر التضاد في بنية العمل الأدبيّ؛ لأنّه بعد الإشارة الدقيقة إلى قيمته ذكر أنّه لم يفِ الحديث حقّه، ونوّه بأنّه سيفرد كتابًا آخر مختّصًا فيه، ولا ندري هل تحقّق له ذلك ولم تحفظه لنا المكتبة العربيّة، أم كان مجرد حلم ولم يبلغ صاحبه تحقيقه. لقد اعتنى بعض القدماء بالتضاد، وتجاوزت عنايتهم حدود الكلمة والأخرى، والجملة وأختها، حتى صار التضاد عندهم منهجًا في التأليف والتصنيف، وخير من يستشهد به في ذلك الجاحظ الذي اتضحت اهتماماته بالتضاد في معظم مؤلفاته، ويكفي أن ينسب إليه كتابٌ يحمل في عنوانه كلمة مشتقة من جنس هذا المصطلح، وهو كتاب "المحاسن والأضداد"، وهو كما يبدو " يبدو من منهجه في مؤلفاته ـ على وعي عميق بالتضاد، رغم أنّه لم يتناوله تناولاً نظريًّا، لكنّه ـ من الناحية العلميّة ـ وظّفه توظيفًا ينمّ عن مدى إدراكه لقيمة التضاد في إبراز المعنى"[٢، ص٢٢٤].

وعلى الرغم من إشارة القاضي الجرجاني الدقيقة إلى بنية التضاد وأثرها في أداء المعاني إلا أنّ العلماء الذين جاؤوا بعده لم يفيدوا منها كثيرًا، ولم يضيفوا إليها شيئًا ذا بالٍ حتى نصل إلى عبدالقاهر الجرجاني فنجد إشاراته إلى التضاد أكثر دقّة وأبعد غورًا من إشارات القاضي الجرجانيّ؛ إذ بيّن قيمة التضاد وجعله سببًا في حسن البيان وسحر الكلام، وجزءًا أصيلاً في تكوين الصورة الأدبيّة. وقد بسط الحديث عن ذلك في كتابه "أسرار البلاغة" في باب"الجنس الذي يراد فيه كون الشيء من الأفعال سببًا لضدّه" ومثّل له بـ"أحسن من حيث قصد الإساءة"، "ونفع من حيث أراد الضُّرّ [٨، ص١٥٥] وقال معلّقًا على ذلك بقوله: "فيدلّ ذلك بما يكون فيه من الوفاق الحسن مع الخلاف البيّن، على حذق شاعره، وعلى جودة طبعه وحدّة خاطره، وعلوّ مصعده وبعد

غوصه، إذا لم يفسده بسوء العبارة، ولم يخطئه التوفيق في تلخيص الدلالة، وكشف تمام الكشف عن سرر المعنى وسرّه بحسن البيان وسحره"[٨، ص١٥٥] فهو بذلك يعدّ التضاد أسلوبًا ذا أثر خطير في أداء المعاني ولا يجيده إلا الحذّاق من الشعراء وأهل البيان.

وأشار في موضع آخر إلى أنّ التضاد طريقة من طرق التعبير عن نقص الصفة، حيث قال: " فكل صفتين تضادّتا، ثم أُريد نَقص الفاضلة منهما، عبّر عن نقصها باسم ضدّها، فجُعلت الحياة العارية من فضيلة العلم والقدرة موتًا، والبصر والسمعُ إذا لم ينتفع صاحبهما بما يَسْمَع ويُبْصِر فلم يَفْهم معنى المسموع ولم يعتبر بالُمبصر أو لم يعرف حقيقته عمًى وصَمَمًا، وقيل للرجل: هو أعمى أصمُّ، يراد أنه لا يستفيد شيئًا مما يسمع ويُبصر، فكأنه لم يسمع ولم يبصر، وسواءٌ عبّرت عن نقص الصفة بوجود ضدّها، أو وصفِها بمجرَّد العدم، وذلك أنّ في إثبات أحد الضدّين وصفًا للشيء، نفيًا للضدّ الآخر، لاستحالة أن يوجدا معًا فيه، فيكون الشَّخص حيًّا ميّتًا معًا، أصمَّ سميعًا في حالة واحدة، فقولك في الجاهل: هو ميّت، بمنزلة قولك: ليس بحيّ، وأنّ الوجود في حياته بمنزلة العَدم"[٨، ص٧٨]. وهذه إشارة واضحة إلى قيمة الضدّ في التعبير عن ضدّه، وتنبيه مهمّ إلى أنّ العلاقات المتشابكة التي تكون داخل النصّ، تؤدّي أثرًا خطيرًا في صناعة الدلالة وتكوين المفاهيم الكبرى، وهذه القضايا هي القضايا نفسها التي تناولها البنيويّون عندما تحدّثوا عن قيمة التضاد والثنائيات الضديّة[٩، ص ١٤٩]. وسيأتي ذلك مفصّلاً بعد قليل.

بل ذهب عبدالقاهر الجرجاني إلى أبعد من ذلك؛ إذ تناول مفهوم الثنائيات نفسها التي تتشكّل من هذه الأضداد وبيّن أثرها في المعاني، قال في ذلك: "وهل تشكُّ في أنّه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين حتى يختصر لك بُعْدَ ما بين المشرق والمغرب، ويجمع ما بين المُشئِم والمُعْرِق، وهو يُريكَ للمعاني الممثَّلة بالأوهام شبَهًا في

الأشخاص الماثلة، والأشباح القائمة، ويُنطق لك الأخرس، ويُعطيك البيان من الأعجم، ويُريك الحياةَ في الجماد، ويريك التئامَ عين الأضداد، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين، والماءِ والنارِ مجتمعين" [٨، ص ١٣٢] ولا شكّ أنّ وقفات عبدالقاهر عند الأضداد وتنبّهه إلى الثنائيات المتضادة وأثرها في أداء المعاني تمثّل رؤية ثاقبة، وإشارة مهمّة إلى قيمة بنية التضاد في التأليف بين المتنافرين وتأديّة معانٍ لا يمكن أن تؤدى بغيرها. وليست هذه الإشارات بغريبة من عبدالقاهر الجرجاني لأنّها تمثّل رؤية جزئية من رؤيته الكبرى في نظرية النظم التي تقوم كلّها على مكوّنات النصّ وبنيته.

كما تنبّه عبدالقاهر إلى أنّ الثنائيات المتضادة من ألطف المعاني وأعجبها، علاوة على قيمتها الموضوعاتيّة والدلاليّة، ومثّل لذلك بقول العرب: "فلان عاش حين مات"، موضحًا ذلك بأنّهم أرادوا أنّه بالموت استكمل الحياة [٨، ص ١٣٥]. ففي مثل هذا التعبير فضلاً عن قيمته الموضوعاتيّة والدلاليّة لطف وعجب؛ لأنّه كيف يعيش المرء وهو ميّت، أو كيف يستكمل الحياة بالموت، فهذا أمر حقيق بالدهشة والعجب واللطف والاستملاح في آنٍ.

وحينما نصل إلى حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) نجده من أكثر القدماء بعد عبدالقاهر تفصيلاً وتوضيحًا لقيمة التضاد في أداء المعاني؛ إذ وقف عنده وقفة واعية في كتابه" منهاج البلغاء وسراج الأدباء، وممّا قاله في ذلك: "... فإنّ للنفوس في تقارن المتماثلات وتشافعها والمتشابهات والمتضادات وما جرى مجراها تحريكًا وإيلاعًا بالانفعال إلى مقتضى الكلام لأنّ تناصر الحسن في المستحسنين المتماثلين أمكن من النفس موقعًا من سنوح ذلك لها في شيء واحد. وكذلك حال القبح. وما كان أملك للنفس وأمكن منها فهو أشدّ تحريكًا لها. وكذلك أيضًا مثول الحسن إزاء القبيح أو القبيح إزاء الحسن ممّا يزيد غبطة بالواحد وتخليًا عن الآخر لتبين حال الضد بالمثول إزاء

ضدّه. فلذلك كان موقع المعاني المتقابلات من النفس عجيبًا[١٠ ، ص ٤٥] ومضى حازم يتعرض لأقسام الطباق وأنواع المقابلة في صفحات عديدة من كتابه، وليس هنا مقام التفصيل في ذلك. ولكن ما يتبيّن لنا مما ذكره هو دقّة مشاهدته ورصده لقيمة التضاد وما يحققّه من علاقات متشابكة في بنية النصّ، بل تعمّقت هذه المشاهدة إلى أن رصدت الأثر النفسي لبنية التضاد في نفس المتلقّي، وهذا ما لحظه عبدالقاهر ولكنّ حازمًا فصّله أكثر.

لم يفد المتأخرون من هذه الإشارات الدقيقة إلى قيمة التضاد في النصّ الأدبيّ، وليتهم وقفوا عندها فحسب، وإنّما قزّموا دوره، وحصروا مفاهيمه المتعدّدة، وجرّدوه من دلالاته الواسعة وعدّوه مجرّد حلية وزينة ومحسّن للكلام، فلو أنّهم واصلوا المسير الذي بدأه القاضي الجرجاني ووضع معالمه الأولى عبدالقاهر ووضّحها حازم لأثمرت جهودهم في صياغة نظرية محكمة، أو تقديم رؤية ثاقبة عن قيمة التضاد في أداء المعاني، غير أنّهم أفرغوه من كلّ محتوياته البلاغيّة والدلالية فأضاعوا عنّا فائدة عظيمة.

ثانيًا: الثنائيات الضّدّيّة في دراسات المعاصرين

يمكن تصنيف المحدثين في نظرتهم إلى التضاد إلى ثلاث فئات، فئة تأثّرت بالنظرة السائدة عند القدماء إلى البديع كلّه؛ وذلك بحسبان التضاد حلية وزينة ومحسنات لفظيّة ومعنويّة، وهذه هي الفئة الغالبة، وهي " تدور في الغالب في فلك القدماء، وتحلّق في سماء فكرهم، فتكرر العبارات، والشواهد ذاتها، وتظلّ فكرة التحسين، والمحسن البديعيّ هي المسيطرة على بحث أصحاب هذه الوجهة للطباق أو التضاد" [٢ ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦]فهؤلاء يرون البديع بعامّة والتضاد بخاصة مجرد المقابلة بين المعاني واللعب بها [١١ ، ص ٤٧]أمّا الفئة الثانية فهي أهل الوسط الذين لم يجاروا السابقين في النظرة

الضيّقة إلى التضاد ، كما لم تنزلق أقدامهم مع أقدام آخرين في المناهج الغربيّة الحديثة ، فلم يغالوا غلوّهم في نظرتهم إلى التضاد ، ومن هذه الفئة محمد زغلول سلام الذي بيّن أنّ الأضداد" تدخل تحت نظرية الاستدعاء المعنوي. وهذا من ناحية المعنى في العقل ، أمّا من الناحية اللغويّة فإنّ للأضداد خطرها في الأسلوب ، وهو خطر يرجع إلى الصلة المعنويّة بين اللفظ وسياق العبارة"[١٢ ، ص ١٣٤]، ورجاء عيد في "فلسفة البلاغة بين التقنية والتطوّر ، وهو " يرفض مجرد تقسيم البديع إلى محسنات لفظيّة ومعنويّة ، ويرى أنّ موضوعات البديع المختلفة لا تنفصل عن النسق العام للغة ، بل هي جزء لا يتجزأ من بنية التركيب الفنّي [١٣ ، ص ٢١٦]. ومن أولاء أيضًا أحمد مطلوب الذي يعدّ المطابقة "من مقوّمات التعبير ؛ لأنّها تعتمد على الأضداد ، والمتناقضات ؛ ولذلك فهي ليست محسنًا ، وإنّما هي وسيلة من وسائل التعبير"[١٤ ، ص ٢٨٨]. وثمّة آخرون يضيق المقام عن ذكرهم. أمّا الفئة الأخيرة من هذه الفئات الثلاث فهم الذين تعاطوا مفهوم التضاد وبنيته من خلال المناهج والنظريات الغربيّة ، سيّما المنهج البنيويّ. فالبنيويّة التي لم يزل صداها ماثلاً في اتجاهات النقد الحديث تتصور أنّ "العالم مجموعة من الثنائيات المتشابكة ، والمتقابلة ، تنعكس على شبكة العلاقات اللغويّة فتحيلها إلى مجموعة من الثنائيات الخالصة"[٩ ، ص ١٤٩]، وقد حاول البنيويون تطبيق هذه الرؤية في قراءاتهم الشعريّة وتحليلهم النصوص الأدبيّة ، وأخذوا يلّحون على أنّ الكلمة مفردة لا قيمة لها ولا دلالة تؤديّها ما لم توضع إزاء نقيضها ؛ إذ إنّ اللغة بعامة عند دي سوسير صاحب الاتجاه البنيوي عبارة عن إشارات ، ولا تعرف دلالة هذه الإشارات إلا "من خلال خصائصها الأساسيّة ، وإنّما يتمّ ذلك من خلال تمايزها عن سواها من الإشارات ، فكلمة (ضلالة) صارت ذات معنى ليس لشيء في ذاتها ؛ ولكن لوجود (الهداية) فبضدها تتبيّن الأشياء. ولولا (السواد لما عرفنا (البياض)" [١٥ ، ص ٣٠]. ويرون بعامّة

أنّ "العنصر الجوهري في القيم الأسلوبيّة يتخلّق أساسًا من التقابلات بين أساليب اللغة المختلفة"[١٦ ، ص ٤٧٥].

وكما ذكرنا آنفًا أنّ التنبّه إلى بنية التضاد وقيمته في استكناه دلالات النصّ فكرة قديمة من لدن عبدالقاهر وحازم القرطاجني، بل كانت هذه الفكرة ـ في نظرتها الموضوعاتيّة ـ أكثر بيانًا وأوضح تفصيلاً عند حازم بخاصة ممّا هو عند البنيويين ؛ إذ بيّن حازم الأثر الفاعل الذي ينتج عن بنيّة هذه الثنائيات المتضادة، سيما الأثر النفسي الذي ألحّ عليه في أكثر من موضع، غير أنّ أنصار البنيويّة من النقاد العرب جهلوا أو تجاهلوا هذه الفكرة الحازميّة وتلقّوها من الغربيّين وألبسوها ثوبًا بنيويًّا خالصًا دون أن يشيروا من قريب أو بعيد إلى فكرة حازم تلك. ولعلّ قدماءنا نظّروا في هذا الشأن أكثر من عنايتهم بمصطلحاته وتطبيقاته الأدبيّة، فما ذكره الغذامي في استكناه مفهوم البنيويين للتضاد فهم نجده عند القدماء ـ وإن لم يكن في دائرة الأدب والنقد ـ فابن قتيبة يرى أنّ "فضائل الأشياء تعرف بأضدادها، فالخير يعرف بالشرّ، والنفع بالضّرّ، والحلوّ بالمرّ، والقليل بالكثير، والصغير بالكبير، والباطن بالظاهر"[١٧ ، ص٨٧].

وقد كان في طليعة النقاد العرب الذين نادوا بهذا الاتجاه، وتبنّوا تطبيقاته ونظّروا له كمال أبو ديب الذي قدّم في كتاباته المختلفة دراسات معمّقة مطبّقًا فيها مبادئ هذا الاتجاه، بخاصة في كتابيه "جدلية الخفاء والتجلّي"، و"الرؤى المقنّعة"، وقد حاول في الأخير أن يقدّم دراسة تطبيقيّة بنيويّة في الشعر الجاهليّ، واختار معلقة لبيد بن ربيعة نموذجًا وسمّاها "القصيدة المفتاح". وقد تبيّن له بنظرة عامّة في الخيوط المضمونيّة في الشعر الجاهليّ "تياران من التجارب الجذريّة يشكلان ثنائية ضديّة. التيار الأول تيار وحيد البعد، يتدفّق من الذات في مسار لا يتغيّر، مجسّدًا انفجارًا انفعاليًّا يكاد أن يكون لا زمنيًا وخارجًا عن السيطرة لا يكبح، أمّا الثاني فهو تيار متعدّد

الأبعاد، أو هو بالأحرى نقطة التقاء ومصبّ لروافد متعدّدة: لتيارات تتفاعل وتتواشج، ويكتمل التبلور النهائي لهذا النمو في سياق زمني يجسّد عمليّة خلق للفاعليّات المعاكسة وتحقيق للتوازن بين الأضداد في الوعي" [١٨، ص ٤٨] وعلى الرغم من أهمّية النافذة الجديدة التي فتحها أبو ديب لدراسة الشعر الجاهليّ إلا أنّ تطبيقاته للبنيويّة على الشعر الجاهليّ فيها تعسّف وتكلّف في التأويل الذي لا ينهض بدليل مقنع، بله الغموض الذي يكتنف تحليلاته للقصيدة المفتاح. وذاك حديث يطول، وقد فنّده بعض الدارسين في ردّهم عليه ردًّا يغني عن التفصيل هنا⁽¹⁾.

على أيّة حال فقد ظلّ غلاة البنيويّة ـ كأبي ديب ومن معه ـ يتيهون في مهامه بعيدة عن موضوعيّة التضاد وحقيقة الثنائيات الضديّة وقيمتها في النصّ الأدبيّ؛ وذلك لأنّهم ظلّوا أسيرين للبنيويّة التي توسّعت" في نظرتها إلى الثنائيات، وحاولت إفراغ الألفاظ من مدلولاتها، وملأها بمدلولات ضديّة، فالإنسان والحجر ثنائيّة ضديّة، بين الحي وغير الحي، فاتّخذت هذا النموذج من جعل الواقع المعيش خطّ سير لها متضمّنًا للثنائيات المتقابلة المتضادة" [٣، ص ٤٤]. ولا شكّ أنّ في هذا شططًا وتعسّفًا؛ إذ ليست الحياة أو الخلق كلّه ثنائيًا كما توّهم البنيويّون، وإنّما الحقّ ما قاله ابن رشيق: إنّ" الناس متفقون على أنّ جميع المخلوقات: مخالف وموافق ومضاد، فمتى وقع الخلاف في باب المطابقة فإنّما هو على معنى المسامحة وطرح الكلفة والمشقّة" [١٩، ص ج٢، ١٠]. فقد كان ابن رشيق ـ كعادته ـ دقيقًا في ضبط هذه المصطلحات، فكثيرًا ما يظنّ ـ حتى في زماننا هذا ـ أنّ المخالف للآخر مضاد له، والعكس صحيح، وهذا وهم وخطأ في أفهام الناس كما بيّن ابن رشيق؛ إذ كلّ مضاد مخالف، ولكن ليس كلّ مخالفٍ مضادًا؛ لأنّ الخلاف أقلّ درجة وحدّة من الضدّ. وإن كان البنيويون قد غالوا في

---

(١) لعلّ أشهرهم الدكتور عبدالعزيز حمودة، في كتابه : "المرايا المقعرة".

تطبيقات الثنائيات الضديّة، فثمة نقاد غربيّون آخرون كانوا أقرب إلى الموضوعيّة في دراساتهم للتضاد، أولئك هم أصحاب مدرسة "النقد الجديد" في أمريكا الذين كانت لهم وقفات عميقة مع التضاد وذلك من خلال معالجاتهم بعض المصطلحات ذات الصلة بمفهوم التضاد، كمصطلح "التناقض الظاهري paradox" ومصطلح "المفارقة Irony" [3، ص ٤٤]. فالأول هو "عبارة تبدو متناقضة أو غير معقولة في ظاهرها، مع أنّها بالفحص والتأمّل يتبيّن أنّ لها أساسًا من الحقيقة" [٢٠، ص ٦٩]ومن ذلك مثلاً "قولك لسائق مندفع: " تمهّل لأصل مبكّرًا"، فظاهر العبارة يبدو متناقضًا، ولكن التمعّن فيها يصل بنا إلى العكس" [٣، ص ٤٥]. أمّا المصطلح الآخر "المفارقة Irony" فـ"الكلمة العربيّة تشي - إلى حدّ ما - بالسمة الجوهريّة لمفهوم المصطلح، من حيث المباينة، وتعدّد وجوه المعنى، وغالبًا ما يكون المعنيان متناقضين محمولين على معنى التضاد"[٣، ص ٤٦]، وقد وردت الكلمة بمعنى التعدّد والاختلاف في المعاجم العربيّة، قال ابن منظور: " وفارق الشيء مفارقة وفراقًا: باينه، ... والفرق والفِرقة والفريق: الطائفة من الشيء المتفرّق" [١، ج١١، ص١٦٩]. والمفارقة" تُظهر التباين على مستوى البنية السطحيّة، وهذا ما يجعلها تشترك في كثير من الملامح مع الطباق والمقابلة وسائر أشكال التضاد الأخرى. كما أنّها تنطوي على احتمالات خبيئة للمعنى على مستوى البنية العميقة على نحو يذكّر بمصطلح "معنى المعنى"، وهي في ذلك ترتكز على صورة من التباين والاختلاف بين المعنى الظاهر والمعنى الباطن، ممّا يجعلها في نهاية الأمر سمة فنية مميزة للغة الشعر"[٣، ص٥٠]. ولعلّ المفارقة أدقّ صور التضاد وأبعدها غورًا واستكناهًا؛ وذلك لعدّة أسباب منها أنّها "تعني الوعي الشديد بالتناقض داخل الذات الشعريّة. وفيها دليل على انتصار سلطة صانع المفارقة، تظهر التناقض بين نسقين: النسق الثقافي الصانع للمفارقة، والآخر يحمل رؤية معينة تتصادم بشكل حادّ مع ثقافة الآخر، فيعرض سلبياته، ويسعى إلى

معاينة سلبيات الحياة من خلال التضاد، وأساسها يتجلّى في المتناقضات" [٢١ : http://www.aliraqi.org/forums/archive/index.php/t-90861.html]. هكذا كانت النظرة العميقة إلى التضاد والثنائيات الضدّيّة في المناهج الغربيّة التي من بين أصحابها من يحمّل التضاد أهميّة أكبر من كونها مجرّد ظاهرة أسلوبيّة ترد في النصّ الشعريّ، بل يذهب إلى أنّ لغة الشعر كلّها لغة تناقض وتضاد، وعدّ التناقض مظهرًا فكريًّا أكثر من أنّه مظهر شعوريّ عارضٌ [٢٢، ص٢٤٩].

وبفضل الجهود السابقة، وتأثّرًا بإضافاتها أخذت الدراسات العربيّة بعامّة تستبين الرؤيّة الدقيقة إلى التضاد، ونشطت المؤلفات التي تحمل في عنواناتها عبارة "الثنائيات الضديّة"، فلم تعد النظرة إلى التضاد أو إلى هذه الثنائيات الضديّة مجرد حلية لفظيّة أو تلاعب بالألفاظ أو اختلاف على مستوى المفردة، كما كان سائدًا في نظرة كثير من السابقين، وإنّما صار التضاد نوعًا من البنى يعبّر من خلالها الشاعر أو الأديب بعامّة عن فلسفته وآرائه ومبادئه التي ما كان له أن يعبّر عنها لو لم يختر هذا السبيل؛ إذ هذه الثنائيات الضديّة تقوم" بوصفها فكرة فلسفية على أنّ ثمة قدرة على الربط بين الظواهر التي يبدو أنها منفصلة " [٢٣، ص٥] فالقيمة الحقيقيّة للتضاد تتجلّى في الربط الذي يحققّه بين عناصر النصّ الأدبيّ، وما ينشئه من تآلف وانسجام بين عناصر يبدو أنّها متنافرة في أصلها، ولكنّها متّحدة متشابكة داخل النصّ الأدبيّ، فالقيمة الأسلوبيّة للتضاد "تكمن في نظام العلاقات الذي يقيمه بين العنصرين المتقابلين فلن يكون له أي تأثير ما لم يتداع في توالٍ لغويٍّ، وبعبارة أخرى فإنَّ عمليات التضاد الأسلوبيّة تخلق بنية مثلها في ذلك مثل بقية التقابلات المثمرة في اللغة" [٢٤، ص ١٦٦]. ولا شكّ أنّ البنية اللغويّة التي تُعطي مجالاً للربط بين الظواهر المتنافرة هي بنية ذات قيمة مؤثرة في النصّ الأدبيّ، سيّما أنّها في بعض أشكالها تشكّل نسيجًا من العلاقات بين المعاني

الحاضرة والغائبة، وهذه المعاني بحاجة إلى ما يؤلّف بينها، ويحقّق بينها نوعًا من التناغم والتجانس ممّا يجعل المتلقّي يستقبل رسالة النصّ بوضوحٍ ويعي مقصود الشاعر بدّقةٍ وفهم ثاقبٍ.

كما أنّ الثنائيات الضديّة تولِّد " فضاء مائزًا للنص؛ إذ تجتمع جملة علاقات زمانيّة ومكانية، وفعليّة بأزمنة مختلفة، فتلتقي هذه العلاقات على أكثر من محور، تلتقي وتتصادم وتتقاطع وتتوازى، فتغني النص، وتعدد إمكانيات الدلالة فيه..." [٢٤، ص ٧]ولا شكّ أنّ هذه المزايا تجعل النصّ الأدبيّ مختلفًا عن غيره؛ إذ " تختلف قيمة كلّ نصٍّ عن سواه من خلال علاقاته الضّديّة، وطاقاته التعبيريّة التي تتجلى في شعريّته" [٢٥، http://www.awu-dam.org/book/05/study05/43-A-S/ind-book05-sd001.htm] وهذه من سمات النصّ الأدبيّ الجيّد، وهي السمات نفسها التي تكسب الأدب الخلود والبقاء على نحو ما نرى النقائض التي قطعت رحلة تربو على ثلاثة عشر قرنًا، وما فتئت تجود بمجالات واسعة للبحث والدرس الأدبيّ.

وبهذا تغدو "لغة التضاد" من خلال دورها في نسج العلاقات والوشائج بين المعاني الحاضرة والمعاني الغائبة في النصّ الشعريّ تشكّل أهمّ عناصر الصورة الشعريّة"[٢٦، ص١٨] لأنّ الدلالات المعنويّة للألفاظ هي أهمّ عناصر الصورة الشعريّة [٢٧، ص٤٥]؛ ومن ثمّ يكسب التضاد النصّ الشعريّ قيمة فنيّة عاليّة؛ لأنّه "بقدر ما تكون جدليّة الحضور والغياب قويّةً يكون النصّ الشعريّ قويًا ومعبّرًا" [٢٨، ص ١٢].

وهذا ما جعل التضاد عند بعضهم يمثّل " العنصر الفارق في القصيدة الجيدة دون غيره من العناصر" [٢٦، ص٢٠]. وعدّ أستاذنا الدكتور صالح بن رمضان أسلوب الطباق ـ الذي هو من أكثر العناصر الفاعلة في الثنائيات الضدّيّة ـ مكوّنًا مهمًّا من مكوّنات الخطاب الأدبيّ، وأدرجه ضمن ما سمّاه أسلوبيّة العدول، فعدوليّة الطباق

عنده تتمثّل في أنّ "السامع ينتظر أن تتتالى في الاختيار وفي استعمال المتكّلم المفردات المنتميّة إلى الجداول المتجانسة دلاليًّا فإذا بالعلاقة بين الكلمتين تحدّث هذه المفاجأة"[٢٩، ص٢٦٧]. إنّ كلّ هذه الوقفات مع الطباق والمقابلة والثنائيات الضّدّية والتضاد بمختلف مصطلحاته تشي باهتمام الدارسين والنقاد بهذا العنصر الفاعل المؤثّر في تشكيل الخطاب الأدبيّ دلاليًّا وفنيًّا.

الثنائيّات الضدّيّة والنقائض

تناغمت أسلوبيّة الثنائيات الضديّة مع الطبيعة الموضوعاتيّة والفنية للنقيضة؛ لأنّ النقيضة في الأصل هي "أن يتّجه شاعر إلى آخر بقصيدة هاجيًا أو مفتخرًا، فيعمد الآخر إلى الردّ عليه هاجيًا أو مفتخرًا ملتزمًا البحر والقافية والروي الذي اختاره الأول" [٣٠، ص٣]، فتعتمد النقائض بعامّة اعتمادًا كبيرًا على كلّ ما ينطوي تحت الثنائيات من تضاد وتقابل وتنافر ومفارقة؛ فلذا حشد شعراؤها الأضداد، وأخذوا يبحثون عنها بحثًا حثيثًا؛ ليوظّفوها في التعبير عن الثنائية الضدّية الكبرى التي تخيّم على جوّ النقائض كلّها، وهي ثنائية الذات والآخر، الذات بكلّ إشراقاتها وإبداعاتها واستعلائها، ويقابلها الآخر - في منظور الذات - بكلّ سوءاته وعيوبه وسقطاته.

ربّما تكون الثنائيات الضدية في النقائض تقنيات ضروريّة فرضتها طبيعة هذا الفنّ؛ لأنّ النقيضة نصّ يقوم كلّه على التوتر والصراع، وهذا يستدعي بنية التضاد بكل أشكاله؛ لأنّ الضدّ بعامّة يعكس دائمًا حالة التنافر والتناقض، ولكن على الرغم من تلك الضرورة الفنيّة والموضوعاتيّة فقد استطاع هؤلاء الفحول ببراعة فائقة أن يجيدوا توظيف هذه التقنيات توظيفًا لا يجعلك تشعر معه بأدنى تكلّفٍ أو افتعالٍ، ولا شكّ أنّهم تفاوتوا في تعاطيها كمًّا وكيفًا، ولكن بعامّةٍ لا تجد عند أحدهم عيبًا من العيوب الفنية التي تخرجه من حلبة الصراع، وتبعده عن دائرة السباق الفنّي.

نظرًا لكثرة الشعراء الذين خاضوا معركة النقائض في العصر الأمويّ، فإنّ الدراسة ستكتفي بفحولها الثلاثة ؛ جرير والفرزدق والأخطل، وتحاول جاهدة إصدار حكمٍ يمكن أن ينطبق على الآخرين الذين لا تسعهم صفحات هذه الدراسة. وبالتأمّل في الثنائيات الضديّة في نقائض هؤلاء الثلاثة تبيّن أنّها تستمدّ أغلب مادّتها من ثلاثة فضاءات (التاريخ، الاجتماع، الدين)، فهي تمثل المصادر الرئيسة التي شكّل منها الشعراء الثلاثة معظم ثنائياتهم ؛ فلهذا تحتّم على البحث أن يسير مسير هذه الفضاءات التي جاء ترتيبها في الدراسة وفق حضورها وغلبتها في النقائض.

فضاءات الثنائيات الضديّة في النقائض

مثّلت الفضاءات الاجتماعيّة والتاريخيّة والدينيّة عامّة مرجعًا أدبيًّا مهمًا لمادة الثنائيات الضديّة التي احتوت عليها نقائض جرير والفرزدق والأخطل ؛ وذلك لأنّ الخطاب الشعريّ الذي تقوم عليه النقائض الشعريّة كلّه يحتكم في نهايته إلى هذه الأنظمة التي تدير حياة المجتمع الذي ينتمي إليه الشاعر ويحتكم إليه في خصومته مع الآخرين.

فالشاعر حينما يوظّف ثنائيات كالإسلام /الكفر، والخير /الشر، والحقّ /الباطل، والهدى /الضلالة، والعفّة/ الفجور، والكرم /البخل، والشجاعة/الجبن، والنصر/ الهزيمة، العزّة/الذلّة، والحريّة/ العبوديّة، وغير ذلك من الثنائيات المتضادة إنّما يستمدّ ذلك من الفضاءات التي تمثّل مرجعيّة ثقافيّة يتماهى معها، فرموز الثنائيات الضدّيّة السابقة ومصطلحاتها تتحدّد دلالاتها وتفسّر مفاهيمها وفق ما هو مقرّر ومتّفق عليه مسبقًا في هذه الفضاءات التي تشكّل ثقافة الشاعر وإطاره الفكري، ولكنّها قد لا تعني شيئًا في فضاءات أخرى لا يمت إليها الشاعر بصلة.

وطبيعة الثنائيات الضدّيّة نفسها سواءً أكانت في النقائض أم في غيرها تقوم على نظام النسق ؛ لأنّ المتلقّي يتلقّى"الثنائيّة ضمن النسق ؛ ذلك لأنّه نظام مع أن نظاميّته تتجلّى في مخاتلته، وطبيعته المراوغة، فتقوم الشعريّة على الأنساق المضمرة، وتتأسّس هذه الأنساق على مبدأ الضّدّيّة على مستوى الموضوع واللغة والصورة" [٢٣، ص٧]وهذه الأنساق نفسها هي وليدة فضاءات محدّدة تحيط بالمرسل والمرسل إليه،وتجعل بينهم عرفًا ثقافيًّا متفقًا عليه في فهم الرموز والكلمات التي هي أشبه بالشفرات والمصطلحات.

وعلى هذا فقد توزّع موضوع الدراسة وفق الفضاءات الرئيسة التي استمدّت منها هذه الثنائيات الضدّيّة مادّتها (الفضاء التاريخي، والفضاء الاجتماعيّ، والفضاء الدينيّ)، وممّا لا شكّ فيه أنّه من الصعب وضع حدود فاصلة بين هذه الفضاءات في نقائض الشعراء الثلاثة ؛ لأنّها تتداخل وتتضافر جميعها لتشكّل رؤيا النقيضة، فعلى سبيل المثال ثنائية العفّة والفجور ثنائيّة دينيّة اجتماعيّة ؛ لأنّهما قيمتان دينيّتان واجتماعيّتان في آنٍ، ومثلها ثنائية الشجاعة والجبن هما ثنائية اجتماعيّة وتاريخيّة ؛ لأنّهما تمثلان قيمتين اجتماعيّتين، ولكنّهما تردان في نصّ النقائض في سياق تاريخيّ معيّن، ومثل ذلك ثنائية الكرم والبخل، فإذن ليس غريبًا أن تتعانق هذه الفضاءات، وتتعالق فيها مخيّلات الشعراء ؛ لأنّ البيئة هي هي، والمؤثرات في هذا هي ذاتها في الآخر، مع بعض الاختلاف في تشكيل الرؤية الخاصّة بكلّ شاعر تبعًا لاختلاف المهارات الإبداعيّة والقدرات الذاتيّة. وفيما يأتي ثلاثة مباحث نحاول من خلالها أن نحلّق فيها مع هؤلاء الشعراء ؛ لنكشف عن الثنائيات المتضادة المستمدة من هذه الفضاءات المختلفة.

المبحث الأول: الفضاء التاريخيّ (أيام العرب)

تعدّ أيّام العرب قطب الرحى الذي تدور حوله أهاجي الشعراء القدامى ومفاخرهم بعامّة ؛ وذلك لأنّها السجل الذي حفظ تاريخ العرب بكلّ تفاصيله، مآثرهم ومخازيهم، انتصاراتهم وهزائمهم، ظلّت هذه الأيّام تذكّر بكل معاني الأحقاد وألوان الضغائن ؛ ولهذا كانت من أنسب المعاني التي لاءمت فنّ النقائض التي تنشد كلّ قبيح من القول لإخزاء الخصم، فلم يكن غريبًا أنّ تكون مادة هذه الأيام أكثر الموادّ شيوعًا في النقائض ؛ إذ وجد فيها المتناقضون بغيتهم، يفتخرون بالأيام التي كانت لهم، ويعيّرون خصومهم بالتي كانت عليهم[٣٠، ص٢٥٨]. والملحوظ أنّ هذه الأيام لم تكن محلّ اهتمام شعراء النقائض وحدهم، فقد كان الشعراء الأمويّون عامّة يضربون فيها بسهم وافر ؛ لأنّها" تصوّر البطولات القبليّة القديمة التي حرصت القبائل في العصر الأمويّ على استعادة ذكراها وسرد تفاصيلها في كلّ مناسبة سواءً للمفاخرة أو للمسامرة، وأصبح الوقوف عليها أول ما يحرص عليه الأدباء والشعراء وشداة العلم والمعرفة"[٣١، ص١٤٧].

وعلى الرغم من أنّ هذه الأيام كانت سجلاً موثوقًا به، فيه رصد لماضي القبائل، وحقائق تاريخيّة في أغلبها إلا أنّ شعراء النقائض لم يأخذوا بها من هذه الناحية التاريخيّة الوثائقيّة، وإنّما اتّخذوها موادّ فنيّة محضة يشكّلون بها خطابهم الشعريّ كيفما يكون، ووفق ما يخدم هذا الخطاب ؛ فلهذا لا نجد التزامًا كاملاً بحقائق هذه الأيام، كما أنّ الشاعر في الغالب لا يلتزم بمعطياتها، فتارة تحمله طبيعة الصراع إلى الافتخار بقبيلة أخرى غير قبيلته ؛ لأنّها فقط عدوّ لقبيلة خصمه الذي يريد النكاية به والنيل منه بأية وسيلة كانت. فهذا جرير يفتخر بأيام قيس ؛ لأنّها خصم تغلب قبيلة الأخطل، وعلى النقيض كان الفرزدق يفتخر بأيام تغلب، ومثلهما كان يفعل الأخطل

في افتخاره بدارم رهط الفرزدق [٣٠، ص٢٥٨]. فكلٌّ منهم لم يقف ذلك الموقف إلا لاعتبارات قدّرها هو بعيدًا عن الموضوعيّة في كثير منها ؛ وهذا ما جعل مواقفهم ليست نهائية، وإنّما تتقلّب حيثما تتقلّب خصوماتهم وعداواتهم، فهذا الفرزدق يفخر بيوم (فيف الريح) وهو يوم لبني نمير القيسيّة على قبائل أخرى، قال في ذلك [٣٢، ج١، ص ٣٨٧، ٣٨٨]:

فإنّكَ مِنْ هِجاءِ بَنِي نُمَيْرٍ كَأَهْلِ النّارِ إِذْ وَجَدُوا العَذابا

ولم تَرِثِ الفَوارِسَ مِنْ نُمَيرٍ ولا كَعْبًا وَرِثْتَ ولا كِلابا

فالقانون الذي يحكم حدود التعامل مع هذه الأيام في النقائض هو قانون الخصام والمنافرة المحضة التي يخوضها الشاعر، ويتحدّد موقفه حسب الشخص الذي أمامه، ووفق معطى اليوم الذي يريد توظيفه في الفخر أو الهجاء.

ولمّا كانت هذه الأيام تقوم في الأصل على الثنائيّة العامّة ثنائيّة المناقب والمثالب، المتمثّلة في القوة والضعف، النصر والهزيمة، العزّ والهوان، السيادة والإذلال، وغير ذلك من المتناقضات التي تخلّفها الحروب في المجتمعات، فقد كانت هذه الأيام الفتيل الذي أوقد جذوة النقائض، وأمدّ فحولها بمادّة شعريّة ثرّة، مستفيدين في ذلك من روح الضغائن التي تنطوي داخل هذه الأيام، ومن التناقضات التي تنعكس عادة من الحروب والقتال.وفيما يأتي وقفة مع الثنائيات الضديّة التي استقاها شعراء النقائض من فضاء أيام العرب .

أولاً: نقائض جرير والأخطل

استقى الشاعران ثنائياتهما المتضادة من أيام كثيرة كانت لقبائلهم، أو لقبائل أخرى يناصرونها. وتفاوت الشاعران في الإفادة من هذه الأيام في تشكيل الثنائيات المتضادة، على نحو ما يتّضح من الشواهد التي نبدأها بيوم (الكلاب)، وهو يوم لتغلب

على بكر ، والكلاب اسم ماء بين البصرة الكوفة ، وكان أول من ورد هذا الماء سفيان بن مجاشع جدّ الفرزدق ، وقد أبلى فيه مع بعض بنيه بلاء حسنًا ، فافتخر بذلك الفرزدق كثيرًا [٣٢ ، ج١ ، ص٣٧٤].فقال الأخطل متباهيًا بذلك أمام جرير [٣٣ ، ص٢٢٤ ، ٢٢٥]:

أَنَسِيتَ قَتْلَى بالكلابِ وحابِسٍ وبَكَيتَ وَيْحَكَ بُرْقَةَ الرَّوحانِ
وَدَّتْ تَميمٌ بالكُلابِ لَوَ أنّها باعَتْ هُناكَ زمانَها بِزمانِ

فالشاعر يذكّر جريرًا بيوم الكلاب من خلال هذه الثنائية التي استهلها باستفهامٍ ينكر ما عليه جرير ؛ وهو نسيانه ذلك اليوم الذي لقيت فيه قبيلته وبال أمرها ، كما يستهزئ ببكائه على برقة الروحان ؛ إذ قال جرير في مطلع معلّقته[٣٣ ، ص١٩٨]:

لِمَنِ الدِّيارُ بِبُرْقَةِ الرَّوحانِ إِذْ لا نَبيعُ زمانَنا بزَمانِ

فأنّى للموتور أن يتغزّل بالنساء وينشغل بهنّ متناسيًا عاره كما فعل جرير ، فإن كان ثمّة بكاء فهو بقتلى الحروب أولى من قتلى القلوب. ثمّ يفيد مرّة أخرى الأخطل من يوم الكلاب الذي صالت فيه تغلب وجالت ليس أمام بكر فحسب ، وإنّما أمام كلّ قبيلة شاركت أو شهدت اللقاء ، فيأتي بثنائية أخرى ؛ ليؤكّد بها بسالة تغلب في هذا اليوم المشهود ويبيّن في آنٍ ما لحق تميمًا من خزي وعار حتى ودّت أن تبيع زمانها الخسيس بزمان شريف ، أي تمنّت أن يكون لها النصر الذي نالته تغلب في هذا اليوم. فالثنائيات المتضادة التي أنشأها الأخطل في البيتين السابقين عن البكاء الذي في غير محلّه ، والأمنية الخرقاء بتبديل الهزيمة بالنصر حقّقت في إيجاز شديد كلّ ما أراده الشاعر من فخر بقومه تغلب ، وهجاء تميم قوم جرير ، فلو لم يأتِ الأخطل بغير هذا المعنى لكفاه من الفخر ، وأغناه عن هجاء جرير بالضعة والخسة والضعف ، وغير ذلك من الصفات التي تناقض كلّ ما نالته تغلب في يوم الكلاب.

ومن هذا اليوم أيضًا ينشئ الأخطل ثنائية متضادة أخرى، ثنائية حضور وغياب، حيث تفهم فيها المعاني الغائبة من خلال المعاني الحاضرة في البيت الذي اشتمل على بنية توحي بتضاد واضح في المعنى، قال في ذلك[٣٣، ص ١٣٦]:

هَلا مَنَعْتُمْ شُرَحْبيلاً وقَدْ حَدِبَتْ   لَهُ تَميمٌ بَجَمْعٍ غَيرِ أَخيارِ

يذكّر الأخطل جريرًا بمقتل شرحبيل بن الحارث الكنديّ الذي لاقى حتفه في هذا اليوم، وما استطاعت تميم حمايته، وإن حاولت ذلك ولكن أنّى لها ذلك بجمع غير أخيار أي ضعاف واهنين لا حول لهم ولا قوّة، فتلك ممّا لا شكّ فيه هي محاولة العاجز وأمنية الخامل الضعيف، فتميم حدبت أي أشفقت وعطفت على شرحبيل، ولكنّها قابلت ذلك الإشفاق بضعف وهوان، كما حرصت على حمايته، ولكنّها قابلت حرصها بنقيض ما ينبغي أن يفعله الحريص من إعداد العدّة وتجهيز كلّ أدوات الحماية؛ لحماية من يراد حمايته.

وأفاد جرير من يوم البشر فأنشأ ثنائيات ضدّيّة عديدة، ويوم البشر يوم كان لقيس على تغلب، وفيه هجم الجحّاف السّلميّ على تغلب، وقتل منهم نفرًا كثيرًا [٣٢، ج١، ص٣٣٥]، فصار جرير يعيّر به الأخطل والفرزدق كثيرًا. فمن تلك الثنائيات ما ورد في قوله [٣٣، ص٩٦]:

وَلَوَ انّ تَغْلِبَ جَمَّعَتْ أَحْلامَها   يَومَ التَّفاضُلِ لَمْ تَزِنْ مِثقالا
تَلْقاهُمُ حُلَماءَ عَنْ أَعْدائها   وعَلَى الصَّديقِ تَراهُمُ جُهّالا

فهو لم يقل مباشرة إنّ تغلب لا حظّ لها من الحلم والأناة والحكمة يوم التفاضل وأيام اللقاء والنزال بعامّة، وإنّما جعلها تجمّع أحلامها كلّها ـ واختار الفعل جمّع بتضعيف عينها بزيادة في المبنى ليزيد في معنى الجمع ـ ولكن بعد ذلك كلّه لم تزن مثقالاً في الميزان، وفي هذا اليوم تقاس الرجال بحلمها، والأقوام بحكمتها، غير أنّ

تغلب أتت وهي خاوية الوفاض من ذلك، فهذه ثنائية تعبّر عن مفارقة غريبة، ولكنّ المفارقة المتناهية في الغرابة هي التي نجدها في البيت الثاني، وهي تتمثّل في أنّ تغلب تحلم وتعقل مع أعدائها، وتجهل وتطيش على أصدقائها. فتجريد تغلب عن الحلم كما ذكر الشاعر في البيت الأول خير لها من وصفها بالحلم الذي يُوضَع في غير موضعه، ويكون مع من لا يستحقّه. كما أنّ الثنائية الضدّيّة في البيت عامّة تحقّق كناية لطيفة، وهي كناية عن ضعف تغلب ولؤمها في آنٍ؛ لأنّها وديعة مع العدو لجبنها، ولئيمة مع الصديق لخسّتها. فتعانق الثنائية الضديّة في البيت مع هذه الكناية يؤكّد ما أشار إليه عبدالقاهر الجرجاني من قبل أنّ التضاد يكسب القول حسن البيان[٨، ص١٥٥].

ومن هذا اليوم نفسه ينشئ جرير ثنائية ضديّة أخرى يصوّر بها خيبة الأخطل وخوره، وقد نكّل بهم الجحّاف شرّ تنكيل [٣٢، ج١، ص٤١٨]:

سَما لَكُمْ الجَحَّافُ بالخَيلِ عَنْوَةً وأَنْتَ بِشَطِّ الزَّابيينِ تَنُوحُ

فثمّة تناقض مخجل يصوّر وضعًا معيبًا في الأخطل، وذلك متمثّل في هجوم الجحّاف على تغلب، ووقوف الأخطل عاجزًا يبكي، كما تبكي النساء في المواطن الجسام، فهذه ثنائية تصوّر أمرين متناقضين، هما مواجهة البطش بالاستسلام، والإذلال بالبكاء لا بردّ الكرامة والانتقام. ومن يوم البشر نفسه الذي كان يومًا مهينًا لتغلب يبني جرير ثنائية متضادة أخرى ولكنّ التهكّم الذي طغى على المعنى يكاد يخفيها، يقول في ذلك[٣٢، ج١، ص٤١٩]:

وضَيَّعْتُمُ بالبِشْرِ عَوْراتِ نِسْوَةٍ تَكَشَّفَ عَنْهُنَّ العَباءُ الُمسَيَّحُ

ففي البيت تضاد خفيٌّ؛ لأنّ هؤلاء النسوة ليس لهنّ عورات في الأصل؛ للباسهنّ الذي أشبه بلباس الإماء، هذا الكساء المخطّط[٣٢،ج١، ص٤١٩]، وهو لباس لا تلبسه الحرائر العفيفات، فالحقيقة التي يريدها الشاعر أنّ هؤلاء النسوة لا

عورات لهنّ لتضيّع في يوم البشر، وإنّما أراد السوءات، فأخفاها لتفهم من إيحاء التضاد بها.

ويسمّي جرير يوم البشر نفسه يوم الرحوب، ويولّد منه ثنائية متناقضة أخرى في بنية توحي بالتضاد ولا تتضمّنه صراحة، حيث يقول [٣٣، ص١٨٧]:

أَيْنَ الأراقِمُ إِذْ تَجُرُّ نِساءَهُمْ   يَوْمَ الرَّحُوبِ مُحارِبٌ وسَلُولُ

فيفهم من الاستفهام الإنكاري ثنائية حضور وغياب، فالحضور يتمثّل في هذا الفعل الشنيع البشع الذي تعرضت له نسوة تغلب يوم الرّحوب، أمّا الغياب فيتمثّل في أنّهنّ لم يجدن من يحمونهنّ من هؤلاء الأراقم، فنساء ولا فحول يحميهنّ، وعرض ولا غيور يذود عنه.

وقد أفاد جرير أيضًا من يوم (الكحيل) ويسمّى مرج الكحيل، وهو يوم لقيس على تغلب[٣٢، ج١، ص٤١٨]، فأنشأ جرير منه ثنائية متناقضة مصوّرًا بها الخزي الذي لقيته تغلب، قال[٣٣، ص ٤٦]:

وحامَى الفَوارِسُ يَومَ الكُحَيْلِ   وَلَمْ تَحْمِ تَغْلِبُ أَدْبارَها

فالفوارس من قيس حمت ذمارها وديارها وأعراضها، ويقابل ذلك تفريط تغلب في أدبارها ونسائها، ففي طباق السلب الذي بين (حامى) و(لم تحمِ) تلخيص لكلّ نتائج الحرب، فالمعنى مكتمل به وواضح الدلالة، فلو لم يكن الفعل (تحمي) متعديًّا يحتاج إلى مفعوله لكان حذف المفعول (أدبارها) أفضل من ذكره؛ لأنه مع الحذف تتحمّل بنية التضاد كلّ معاني التفريط وعدم الحماية.

وفي القصيدة نفسها يفيد الشاعر من يوم آخر، وهو يوم حزّة الذي أوقع فيه الهذيل القيسيّ بتغلب[٣٣، ص٤٦]، فينشئ منها ثنائية يكرّس فيها الأوصاف التي أرادها لتغلب، قال في ذلك[٣٣، ص٤٦]:

وَضَعْتُمْ بِحَزَّةَ حَمْلَ السِّلاحِ   ولَمْ تَضَعِ الحَرْبُ أَوْزارَها

فهذا تضاد مباشر وصريح ، وهو يتمثّل في طباق النفي الماثل بين (وضعتم) و(لم تضع) ، وبه بيّن الشاعر هوان تغلب التي ركنت إلى السلام قبل أن تضع الحرب أوزارها ، ليس حبًّا منها للسلام ، وإنّما رغبة في السلامة من قيس ، وإلا فكيف يضع المرء سلاحه ، ومازال عدوه يشهر سلاحه في وجهه. فما أراده الشاعر من هذه الثنائية المتناقضة بيان شجاعة قيس وجبن تغلب ، ذلك الجبن الذي جعل تغلب ـ كما وصف الشاعر في القصيدة نفسها ـ يفرّون من أرض المعركة تاركين وراءهم نساءهم لقيس ، قال في ذلك[٣٣ ، ص٤٧]:

تَرَكْتُمْ لِقيسٍ بَناتِ الصَّريحِ   وعُوذَ النِّساءِ وأَبْكارَها

فرّوا تاركين لقيس بنات الصريح ، ويقصد بهنّ النساء الخالصات النسب ، الشريفات الحرائر[١ ، ج٨ ، ص٢٢١]. ومن الأيام التي تباهى بها الأخطل ، واستمدّ منها ثنائياته يوم الحشّاك الذي كان لتغلب على قيس ، وفيه قتل عمير بن الحباب[٣٣ ، ص٢٨]، فيأتينا الأخطل بثنائيات متضادة عدّة من هذا اليوم يصوّر بها الهوان الذي أصاب قيسًا ، فمن ذلك قوله[٣٣ ، ص٣٢]:

شَفَى النَّفْسَ قَتْلَى مِنْ سُلَيمٍ وعامِرٍ   ولَمْ تَشْفِها قَتْلَى غَنيٍّ ولا جَسْرِ

فالمعنى العام الذي يقرّره الأخطل أولاً في هذا البيت هو القتل والهلاك الذي أصاب سليمًا وعامرًا وغنيًّا وجسرًا ، وهذه كلّها بطون من قيس ، ثمّ يخوض الشاعر في إنشاء ثنائية متضادة ؛ وذلك بطباق السلب الذي نقرؤه بين (شفى) و(لم تشفها) ، مفتخرًا في ذلك بقتل دون قتل ، ونصر دون نصر ، فقد شفى نفسه قتل سليم وعامر ؛ لشرفها ورفعتها في قيس ، بينما لم يشفها قتلى غني وجسر لوضاعتها وخسّتها ، وفي

المعنيين هجاء لقيس ؛ إذ القتل ليس بخير للشريف ولا الخسيس ، سيما إن كان القتيلان من أصل واحد.

خلاصة الحديث عن الثنائيات الضديّة المستقاة من أيام العرب في نقائض جرير والأخطل ، أنّ كلا الشاعرين حاول أن يفيد من هذه الأيام في الفخر بقومه أو من يناصره ، وهجاء خصمه ومن يناصرهم من القبائل ، ولكن ما يلحظ في هذه الثنائيات أنّ جريرًا كان أكثر توفيقًا من صاحبه الأخطل في توليد الثنائيات الضدية من هذه الأيام وتوظيفها في أداء ما يريد من معنى قياسًا بخصمه الأخطل ، ولعلّ سبب ذلك هو الرصيد الوافر من الأيام التي وجدها جرير من تميم وقيس ، ولم يجد الأخطل مثله من تغلب ، فضلاً عن نصرانية تغلب التي أخزت شاعرها كثيرًا ، وحالت بينه وبين كثير من المخازي التي كان يمكن أن يوجّهها لجرير ، فهذه النصرانية جعلت تغلب تسبح ضدّ التيار الذي عليه القبائل الأخرى ، فهي في الإسلام مستضعفة في حربها وسلمها ، مستضعفة في حربها بقتالها وحدها ، وفي سلمها بجزيتها التي جعلتها صاغرة مذعنة ، كما لا يستطيع الأخطل في آنٍ خسران الجماعة المسلمة بالفخر بماضي تغلب في الجاهليّة حتى لا يوغر الصدور ، ويوسّع دائرة الخصومة عليه.

ثانيا: نقائض جرير والفرزدق

من العجب أن يكون هذان الخصمان ابني عمومة ؛ ينحدران من أصل واحد ، وهو تميم ، مع اختلاف في بطن القبيلة ، فجرير من كليب من يربوع ، والفرزدق من مجاشع من دارم ، فواقع الحال يقتضي ألا تكون بينهما خصومة أو أدنى تعاطٍ لهذه الأيام ؛ إذ المصير واحد ، والعدوّ مشترك ، ولكن جاء واقع النقائض خلاف الواقع القبليّ ، فاختار جرير لذلك مناصرة قيس عيلان على الرغم ممّا بينها وبين قبيلته (تميم) من صراعات مشهودة وأيام معروفة ، إلا "أنّ الحوادث قرنت يربوعًا وشاعرها جريرًا

مع قيس منذ غلب ابن الزبير على العراق، وأيضًا فإنّ الحوادث وضعت الفرزدق ضد ابن الزبير والقيسيين معه، فإنّ قومه هم الذين قتلوا الزبير بعد موقعة الجمل، وقد اصطدم بابن الزبير حين خاصمته زوجه النوار إليه في مكّة..."[٣٤، ص١٧٧] فاستفاد الشاعران من الظروف السياسيّة، فصار جرير يدافع عن قيس التي اتفقت مع قبيلته يربوع في وقوفها ضدّ ابن الزبير، ولذات الأسباب وقف الفرزدق ضدها؛ لأنّ قبيلته من القبائل التي ناصرت ابن الزبير.

بطبيعة الحال لم تكن السياسة وحدها قمينة بتفسير هذا الصراع الغريب الذي كان بين رجلين ابني عمومة، فقد اجتمعت مع ذلك غايات اللهو والتسليّة بهذا النوع من الشعر، فتلك الأسباب مجتمعة وقد تكون معها أخرى يمكن أن تقرّب الشقّة إلى ذهنية المتلقّي الذي يُدهشه كلّ معنى من معاني الشاعرين في هذه النقائض. على أيّة حالٍ نجد الثنائيات الضديّة استمدّت مادّتها في نقائض هذين الشاعرين من أيام العرب على نحو ما كانت عليه في نقائض جرير والأخطل، حيث أفاد الشاعران من الوقائع التي كانت بين قيس وتميم.

وكان من هذه الأيّام التي شكّلت حضورًا واضحًا في ثنائيات الشاعرين يوم (إراب)، وهو من أكثر الأيام التي أثرت هذه الثنائيات في نقائض الشاعرين، وهذا اليوم من الأيام العظيمة التي كانت لتغلب على يربوع، وقد مرّ ذكره في نقائض جرير والأخطل، ولّما كان هذا اليوم من أيام الشؤم على يربوع كان لابدّ للفرزدق أن يفيد منه في هجاء جرير؛ ليخرس به لسانه، ويردّ به أذاه عن مجاشع التي تطاول عليها كثيرًا بسبابه وهجائه المقذع. فمن الثنائيات الضديّة التي صاغها الفرزدق من هذا اليوم قوله [٣٢، ج١، ص٣٩٤]:

نساءٌ كُنَّ يومَ إرابَ خَلَّتْ بُعُولَتَهنَّ تبتَدرُ الشِّعابا

فكلمتا (خلّت) و(تبتدر) حقّقتا مفارقة غريبة في البيت، تمثّلت في أنّ هؤلاء النسوة لم يعدن يثقن في أزواجهنّ الذين لم يستطيعوا حمايتهنّ من هوان هذا اليوم؛ فلُذْن بشعاب الجبال، وتخفين وراءها. وعندما لا يستطيع الزوج حماية زوجه وصونها من الهوان، وتجد نفسها مضطرة إلى الفرار منه طلبًا للنجاة، يكون الزوج حينئذٍ لا قيمة له، وتكون الزوج في حال لا تحسد عليها. فالمفارقة أدّت المعنى القاسي الذي أراد الفرزدق التعبير عنه في حال نساء يربوع يوم إراب.

ومن يوم إراب بنى الفرزدق أيضًا ثنائية ضديّة أخرى، يقول[٣٢، ج١، ص ٣٩٤]:

فَلَوْ كانَتْ رِماحُكُمُ طِوالاً لَغِرْتُمْ حِينَ أَلْقَينَ الثِّيابا

فـ(لو) الشرطية التي تفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط أراد بها الفرزدق أنّ يبيّن أنّ رماح يربوع يوم إراب كانت قصارًا، وليست طوالاً ـ وطول الرماح كناية عن الشجاعة، وقصرها كناية عن الجبن ـ فأراد الشاعر أن يقول لهم: إنّ رماحكم قصار، وليست طوالاً، فعدل عن ذلك، مكتفيًا بإيحاء الأداة (لو) التي تفيد الامتناع والغياب. والمحصّلة الأخيرة التي أرادها الفرزدق من كلّ ذلك تفريط هؤلاء القوم في نسائهم بجبنهم وضعفهم.

وفي ثنائية متناقضة أخرى تشكّل معنى قريبٌ من المعنى السابق قال الفرزدق مفيدًا أيضًا من يوم (إراب) [٣٢، ج٢، ص١٢١]:

يُحصِّنُ عَنْهُنَّ الهُذَيلُ فِراشَهُ وهُنَّ لِخُدَّامِ الهُذَيلِ بَراذِعُ

ففي البيت معنيان متقابلان، ولكنّ في كليهما هجاء مقذعًا لنساء جرير، والمعنى العامّ للبيت هو أنّ الهذيل التغلبي بعد أن تمكّن من نساء يربوع لم يفجر بهنّ ترفّعًا عن نتانتهنّ، فأهداهنّ لخدّامه ففجروا بهنّ شرّ فجور. ففي المعنى الأول تحصّن

الهذيل منّهنّ، تحصّنًا ليس لعفة فيه، وإنّما لبغض هؤلاء النسوة، وفي المعنى الثاني إمعان في هجاء النسوة اللائي لاقين شرّ أمرين؛ فجور، ولكنّه فجور من خدّام وليس من أحرار. وتتجّلى الثنائية المتضادة في تحصّن الهذيل من هؤلاء النسوة مقابل فجور خدّامه بهنّ.

وقال الفرزدق في ثنائية أخرى موظّفًا يوم (إراب) نفسه، ويهجو فيها كذلك نساء جرير اللائي وقعن في أسر تغلب[٣٢، ج٢، ص٢٥٩]:

أَحْبَبْنَ تَغْلِبَ إِذْ هَبَطْنَ بِلادَهُمْ لَمّا سَمِنَّ وكُنَّ غيرَ سِمانِ

فالثنائية المتنافرة لا تنحصر في طباق النفي الموجود بين (سمنّ) و(غير سمان) وإنّما تكاد تخيّم على البيت كلّه، من خلال المفارقة التي جعل بها الشاعر نساء يربوع يحببن ديار العدوّ، ويأنسن بالعيش فيها، فيسمنّ بعد هزالٍ، ويهنأن بعد شقاء، ولا شكّ أنّ المعنى الذي يرمي إليه الشاعر أكثر إيحاءً من المعنى الظاهر، وإلا فكيف تأنس نساء بديار أعداء قومهنّ؟!

ومن الأيام التي أسهمت إسهامًا فاعلاً في تشكيل الثنائيات الضدّية عند الشاعرين يوم المرّوت، وهو يوم ليربوع على قيس[٣٢، ج١، ص٧١]، وعلى الرغم من أنّه ليربوع رهط جرير دون دارم رهط الفرزدق إلا أنّ الفرزدق عيّر به قيسًا التي لقيت فيها ما لا تحسد عليه؛ فمن ثمّ كان هذا اليوم رصيدًا طيبًا للشاعرين؛ لجرير في الفخر بقومه، وللفرزدق في هجاء قيس. قال جرير في ثنائية متنافرة واصفًا حال نساء عامر القيسيّة[٣٢، ج١، ص٣٩٨]:

رَدَدْنا بِخَبْراءِ العُنابِ نَساءَكُمْ وقَدْ قُلْنَ عِتْقُ اليومِ أَوْ رِقُّنا غَدا
فأَصْبَحْنَ يَزْجُرْنَ الأَيامِنَ أَسْعُدا وقَدْ كُنَّ لا يَزْجُرْنَ بالأَمْسِ أَسْعُدا

ففي البيت الأول حصر جرير مصير هؤلاء النسوة في أمرين لا ثالث لهما، إمّا عتقهنّ اليوم وذلك بالدفاع المستميت عنهنّ حتى لا يُسبين، أو التفريط فيهنّ؛ فيقعن في الأسر ويصرن رقًّا للأعادي، فالمقابلة الماثلة بين (عتق اليوم) و(رقّنا غدًا) كانت بمنزلة رسالة عاجلة من هؤلاء النساء للرجال، وذلك بالإفادة من بنية التضاد الذي يصوّر الموقف ويحصره في حالين لا ثالث لهما، فلا وسط بين الرقّ والعتق، وكذا قوم الفرزدق في حالين لا ثالث لهما، إمّا يرضون لنسائهم بالأوّل (الرقّ) وبعدئذ يغدون لا قيمة لهم بين القبائل - وهذا ما حدث كما صوّره جرير - وإمّا يختارون لهنّ الثاني (العتق)، ولهذا ثمن غالٍ لابدّ من دفعه، وهو المهج والأرواح، وليسوا هم - كما بيّن جرير - من يجودون بذلك.

ومن يوم المرّوت أيضًا، شكّل جرير ثنائية متضادة أخرى مصوّرًا الحال السيئة التي فيها نساء الفرزدق وهنّ قد ردفن خلف الرجال الأعادي ورضين لهم بكلّ شيء، قال جرير في ذلك[٣٢، ج٢، ص١٢٤]:

ألا تسألُونَ المُرْدَفاتِ عَشِيَّةً　　مَعَ القَوْمِ لا يَخْبَأْنَ ساقًا لِمُجْتَلِ
مَنِ المانِعُونَ السَّبْيَ لا تَمْنَعُونَهُ　　وأَصْحابُ أَغْلالِ الرَّئيسِ المُكبَّلِ

يخاطب جرير الفرزدق مذكّرًا إيّاه بهذا اليوم الذي وقع فيه نساؤهم في الأسر، ويقول له في إغاظة وإهانة بالغة سَلْ نساءكم الأسيرات المردفات ليخبرنك من الذين يمنعون نساءهم من السبي غيرنا؟ ومن الذين لا يمنعون نساءهم من الوقوع في الأسر غيركم؟ فهذه الثنائية المتناقضة لم تكن ماثلة بألفاظها الصريحة في البيت، ولكنّها تفهم من الاستفهام التقريري، ويؤكّدها التضاد الصريح المتمثّل في "المانعون" و"لا تمنعونه"، فجرير يريد أن يقرّر في زهو بالغ أنّهم وحدهم الذين يمنعون نساءهم من الأسر، ولا يتركونهنّ في أيدي الأعادي كما يفعل الفرزدق ورهطه. وفي ثنائية متضادة أخرى يخفي

الشاعر أحد طرفيها موظّفًا العطف الذي يفيد نية تكرار الحكم ؛ ليكرّر الاستفهام السابق ، مؤكّدًا به أنّهم أيضًا وحدهم أصحاب أغلال الرئيس المكبّل ، أي هم الذين يكبّلون الرئيس ويأسرونه مستصغرًا ، وفي ذلك إشارة إلى ما فعلوه ببحير بن عبدالله من قيس القشيريّة يوم المرّوت[٣٢ ، ج١ ، ص٧١]. ومن يوم آخر من أيامهم يُسمى يوم الوقيط يقول جرير للفرزدق[٣٢ ، ج١ ، ص٢٦٠]:

أَحَسِبْتَ يَومَكَ بالوَقِيطِ كَيومِنا يَومَ الغَبِيطِ بِقُلَّةِ الأَرْحالِ

ويوم الوقيط يوم تجمعت فيه اللّهازم على تميم ، واللّهازم هم قيس وتيم الله وعِجل وعنزة بن أسد [٣٢ ، ج١ ، ص٢٦٠]، وظلّ جرير يعيّر الفرزدق بهذا اليوم زمنًا طويلاً. أمّا يوم الغبيط فهو يوم أبلى فيه يربوع بلاء حسنًا في قتال بسطام بن قيس ونفر آخرين[٣٢ ، ج١ ، ص٢٦٧]، فكان ذلك محلّ فخر لجرير على الفرزدق. وفي هذا البيت ثنائية تتنافر معانيها كما تنافرت الأحداث واختلفت بين هذين اليومين ، فثمة تضاد ماثل بين كلمتي (يومك) و(يومنا) يفهم من اختلاف الضميرين (كاف) الخطاب في الأولى ، و(نا) المتكلّمين في الثانية ؛ ليؤكّد بذلك الشاعر الاختلاف الكبير بين يوم الوقيط ويوم الغبيط ، وهو اختلاف معروف في الفضاء التاريخيّ ، ولا يجهله أحد من القوم المستهدفين بهذا الخطاب الشعريّ. كما أنّ الاستفهام الإنكاري المقترن بالفعل (حسبت) ، يُنكر به جرير على الفرزدق إنكارًا عظيمًا أن يقارن يوم خزيهم وعارهم وهزيمتهم النكراء وسبي نسائهم في يوم الوقيط بيوم الغبيط يوم بلاء يربوع وبسالتهم وسحق أعدائهم. وفي يوم آخر يسمى يوم النسار ، يقول الفرزدق لجرير مفتخرًا[٣٢ ، ج١ ، ص٢٠٧]:

فما أَمْسَى لِضَبَّةَ مِنْ عَدُوٍّ يَنامُ ولا يُنِيمُ مِنَ الحِذارِ

فهذه الثنائية الضديّة التي نقرؤها في طباق النفي بين (ينام) و(لا يُنيمُ) يبيّن المآل العظيم الذي آلت إليه ضبّة بعد يوم النّسار، حيث صار أعداؤها بعدما لقوه من هزيمة وهوان في وجلٍ ورعب وخوف عظيم، حتى غدوا لا ينامون ولا ينام من يحمونه من الناس؛ أي هم غير آمنين وغير مُؤمِّنين غيرهم، ولا شكّ أن من لا ينام لا يُنيم؛ لأنّ فاقد الشيء لا يُعطيه. ولا تقتصر الثنائية الضديّة على مستوى المفردتين المذكورتين اللتين كونتا طباق السلب فحسب، وإنّما نرى البيت كلّه تشمله ثنائية ضدّيّة كبرى، طرفها الأول بيان حسن الحال الذي فيه ضبّة، وطرفها الآخر سوء المآل الذي بلغه أعداؤه، فلا شكّ أن من لا ينام أعداؤه ولا ينيمون من هم في حمايتهم يكون هو في نوم عميق، وفي أمن وسلامة من أمره.

وما يلحظ على حضور أيام العرب في فضاءات الثنائيات الضديّة عند الشاعرين أنّ جريرًا أكثر عناية بها من صاحبه الفرزدق، ولعلّ مردّ ذلك إلى سببين؛ الأول الأيام الكثيرة التي توافرت لجرير من قبيلته الأصل (تميم) وفرعها (يربوع)، واجتمعت له مع تلك أيام قيس التي ناصرها وصار المنافح عنها أمام أعدائها، أمّا السبب الآخر فهو أنّ جريرًا كان حقيقة بحاجة إلى المعاني التي تتناسل منها هذه الأضداد؛ ليضعنا في مفارقة وتناقضٍ يدّعيها في واقع الفرزدق الذي لا يبلغ جرير شأوه؛ في حين أنّ الفرزدق لم يكن بحاجة إلى ذلك كثيرًا؛ لأنّه كان معتدًّا بذاته وبرصيده الثرّ من شرف آبائه وأجداده؛ فلذلك طغت على خطابه الشعريّ ـ عندما وظّف هذه الأيام ـ مفردات الأنا الجماعيّة، حيث نراه يردّد كثيرًا عند الإشارة إلى هذه الأيام (ونحن)، و(وكنّا) و(ومنّا)، وهذه عبارات تكرّس مبدأ الاعتداد بالذات ولا تعترف بالآخر مطلقًا، وذلك خلاف لما كان عليه خطاب جرير الذي كان يكثر من موازنة الذات بالآخر. وما

يعزّز ما ذكرناه في أمر الفرزدق بأنّه لا يعترف بالآخر ؛ ليوازن به ذاته وقومه هو خطابه الاستعلائي في الفخر والهجاء معًا ، كقوله في الأخير[٣٢ ، ج١ ، ص ٣٢٨]:

فيــا عَجَبًــا حتّــى كُلَيــبٌ تَــسُبُّني   وكانــتْ كُلَيــبٌ مَــدْرجًا للمَــشاتِمِ

فعندما تكون النظرة إلى الآخر بهذا الاحتقار يكون الآخر لا قيمة له ؛ ليوازن بالذات المستكبرة المعتدة بكل ما عندها. وفي المرات القلائل ـ موازنة بما عند جرير ـ التي ينحو فيها الفرزدق منحى الموازنة التي تتناسل منها هذه الثنائيات المتنافرة نجد عنده الضربة القاضية التي تودي بكلّ صرح احتمى به جرير وقومه[٣٢ ، ج١ ، ص٣٨٥]:

أَتَطْلُــبُ يــا حِمــارَ بنِــي كُلَيــبٍ   بعانَتِــكَ اللّهــامِيمَ الرّغابــا (٢)

وتَعْــدِلُ دارِمًــا بِــبَني كُلَيــبٍ   وتَعْــدِلُ بالْمُفَقِّئَــةِ الــسِّبابا(٣)

فالاستفهام الإنكاري الذي بنى عليه معاني البيتين أنشأ به ثنائيات ضديّة تصوّر علوّ المقام الذي فيه الشاعر ، وحقارة الحال التي عليها جرير ، ومع ذلك لا يرعوي عن مقارعة الفرزدق ؛ فيحاول عبثًا التصدّي لقوم الفرزدق اللهاميم العظام بحماره ، ويسعى عاجزًا إلى معادلة دارم ببني كليبٍ. وقد تكون تلك الثنائيات كلّها مبطّنة غير واضحة ، ولكنّ الثنائية الأخيرة التي جعلها بين شعره وشعر جرير ، كانت واضحة وبيّنة ، فشعر جرير ـ في ادّعاء الفرزدق ـ سباب وفرقعات لا أثر لها ، أمّا شعره فيفقأ العيون ويودي بالأسماع والأنظار ، فهذه الحال جعلت جريرًا يرضى من الغنيمة بالإياب ، ومن النصر بالسبابِ. ولا شكّ أنّ مثل هذه المعاني هي التي جعلت كثيرًا من النقاد يقدّمون الفرزدق على صاحبه جرير. فما يلحظ عامّة أنّ الفرزدق كان قليل

---

(٢) اللهاميم: السّادة العظام الأفعال، والرغاب: الواسعة، ومنها إناء رغيب أي واسع. ويعني بذلك كلّه عظمة قومه.

(٣) المفقّئة : يعني بذلك أنّه يفقّئ عيني جرير بأشعاره عندما يهجوه.[٣٢، ج١، ص٣٩٥].

الإيراد للثنائيات الضديّة ولكنّه مع ذلك كان يأتي بالضربة القاضية، غير أنّ كثرتها عند جرير جعلته يبزّ صاحبه؛ لأنّه يحفز المتلقي بثنائياته التي تنقله إلى جوّ التوتر والصراع الذي تقوم عليه النقائض؛ فمن ثمّ يجد نفسه أكثر تفاعلاً مع نصّ جرير سيما النصّ الذي حشد فيه هذه الثنائيات المتضادة.

المبحث الثاني: الفضاء الاجتماعيّ

مثّلت النقائض كلّ مظاهر العصبيّة الجاهليّة التي نهى الإسلام عنها، وأسهمت إسهامًا سيئًا في تأجيج نيران القبليّة التي حاربها في شتى صورها، فهي منذ نشأتها الأولى جاءت وليدة عصبيّة محضّة أذكت جذوة صراعها، فقد رُوِي أنّ بداية هذا الصراع كانت بسبب التهاجي بين جرير والبعيث المجاشعي، فلمّا أفحمه جرير وأفحش في هجاء نساء مجاشع لم يجد الفرزدق بدًّا من الامتثال لاستغاثة المجاشعيّات اللائي لذن به فرارًا من شرّ جرير[٣٢، ج١، ١١٧]، فكانت البداية الجادّة - إن صحّ التعبير - لهذا الفنّ الذي طبّق الآفاق، وأقضّ مضاجع الشعراء؛ فأخذوا يتحزّبون إمّا مع جرير أو مع الفرزدق.

ظلّت هذه النقائض سوقًا رائجة للعصبيات المقيتة، يجلب إليه الشاعر من تاريخ قبيلته ونسبها كلّ غالٍ ونفيس، وكلّ ما من شأنه يرفع أسهمه ويروّج به بضاعته أمام خصومه، والعكس صحيح عند الآخر (الخصم) الذي كان يعرض من قبيلة خصمه لكلّ ما يخزيه ويهينه ويؤذيه من أيام ومثالب ونسب وحوادث مختلفة.

كان من الطبعيّ أنّ يتأثّر شعراء هذا الفنّ بالفضاء القبليّ الذي كان مهيمنًا على العقليّة الأمويّة في شتى مناحي الحياة؛ فالخلافة غدت عصبيّة خالصةً، وأخذت تعمل كلّ ما من شأنه أن يذكي العصبيّة ويؤجّج فتنها؛ لتصبح القوّة الحاكمة قوّة مهمّة لحفظ

التوازن الاجتماعيّ، أمّا المجتمع الأمويّ فراجت فيه هذه الدعوات القبليّة التي تناغمت مع وجدانه المسكون أصلاً بحبّ القبيلة والانتماء إليها؛ فلذلك أسهم هذا الفضاء الاجتماعي إسهامًا فاعلاً في تشكيل الخطاب الشعريّ لدى شعراء النقائض، حتى يكاد يشكّل أغلب معاني النقيضة؛ لأنّ الافتخار بالقبيلة والجماعة، وما يقابله من هجاء الآخرين والانتقاص من قدرهم ـ يشكّلان المحورين الرئيسين في هذا الفنّ، كما أنّ الحديث عن أيّام العرب التي لها نصيب الأسد في النقائض ـ يقوم كلّه على القبيلة؛ مفاخرها ومخازيها في الماضي، ولا يخلو بالطبع الحديث في ذلك من نسب القبيلة وحسبها؛ فلذلك كان للمرجعيّة القبليّة والفضاء الاجتماعيّ بكلّ تفاصيله ومعطياته دور كبير في تشكيل الثنائيات الضدّيّة التي بدت واضحة في قصيدة النقائض بعامّة، وفيما يلي وقفات توضّح ذلك.

أولاً: نقائض جرير والأخطل

إن الصراع الذي كان بين تغلب قبيلة الأخطل وقيس التي اختار جرير الدفاع عنها أمام الأخطل والفرزدق خلّف صراعًا آخر في تشكيل المعاني التي تضمنّتها نقائض جرير والأخطل، وأسهمت الثنائيات الضدّيّة إسهامًا كبيرًا في تشكيل معاني هذا الصراع العنيف الذي كان بين الشاعرين،

صحيح أنّ الشاعرين تفاوتا في توظيف هذه التقنية لأداء المعنى المنشود غير أنّ كلاً منهما كان مدركًا قيمة هذه الثنائيات المتضادة، فهذا الأخطل يوظّفها في هجاء بني العجلان وهم بطن من بطون قيس، فيقول[٣٣، ص٣٥، ٣٦]:

وَكُنْتُمْ بَني العَجْلانِ أَقْصَرَ أَيدِيًا وأَلأَمَ مِنْ أَنْ تَبْلُغُوا عاليَ الأَمْرِ
وإِنْ نَزَلَ الأَقْوَامُ مِنْزِلَ عِفَّةٍ نَزَلْتُمْ بَنِي العَجْلانِ مِنْزِلَةَ الخُسَرِ

وشارَكتِ العَجْلانُ كَعْبًا ولمْ تَكُنْ تُشارِكُ كَعْبًا في وفاءٍ ولا غَدْرِ

تتضمّن صيغة التفضيل التي استهلّ بها الشاعر هذه الأبيات ثنائية ضدّيّة خفية ؛ إذ إنّ المفاضلة تقتضي أن يكون هناك طرفان ، وأنّ أحدهما زاد على الآخر في الصفة المذكورة ، وهنا أراد الشاعر أن يخزي بني العجلان بجعلهم أقصر الناس يدًا ، والأمهم خلقًا وطبعًا ، فلو لم يختر الشاعر صيغتي التفضيل (أقصر) و(ألأم) لما استطاع أن يحقّق ما حقّقه من معنى في هذه البنية ، ولكنّ المفاضلة جعلت بني العجلان في أشنع صورة وأقبح حالة ؛ لأنّ الموازنة تقرّب الصورة وتوضّحها. أمّا في البيت الثاني فثمّة ثنائية متنافرة أخرى ، وهي بين (منزل عفّة) و(منزلة الخُسر) ، فالشاعر يوضّح بهذه الثنائية البون الشاسع الذي بين بني العجلان والأقوام الآخرين ، فعندما ينزل الناس منزل العفّة والنبل والطهر ، هم لا يختارون إلا منزلة الفسق والفجور والخُسر ، وعلى الرغم من أنّ (العفة) ليست ضدّ (الخسر) إلا أنّ بنية التضاد حمّلت لفظة (الخسر) دلالة التضاد والتناقض. وعلى هذا فثمة تضاد آخر بين (نزل) و(نزلتم) ، فلا تناقض بين هذين اللفظين وهما بمعزل عن بنية التضاد ، غير أنّهما عندما يجتمعان بـ (منزل العفّة) ، و(منزلة الخسر) ، يتّضح أنّ هناك نزولين متناقضين.

وهكذا في البيت الثالث فالمشاركة مشاركتان غير أنّهما مختلفتان ؛ إذ إنّ بني العجلان شاركت كعبًا ، ولكنّها ليست مشاركة في وفاء أو غدر ، وإنّما في لؤم ودناءة ، وقد اجتمع مع تقنية التضاد أسلوب الكناية ، فجاء المعنّى مكثّفًا في عبارات بسيطة ومحكمة ، ففي قول الشاعر : إنّ بني العجلان لا يشاركون كعبًا في وفاء ولا غدر ، كناية دقيقة عن خسّة هؤلاء القوم وخورهم ؛ إذ من لا يفي ولا يغدر يعدّه العرب ضعيفًا جبانًا لا شأن له بينهم.

وقال الأخطل أيضًا في هجاء جرير موظّفًا جملة من الثنائيات الضديّة المستقاة من الفضاء الاجتماعي[٣٣، ص٨١، ٨٢]:

مَنَّتْكَ نَفْسُكَ أَنْ تكُونَ كَدارِمٍ أَوْ أَنْ تُوازِنَ حاجِبًا وعِقالا
وإِذا وَضَعْتَ أَباكَ في مِيزانِهِمْ قَفَرَتْ حَدِيدَتُهُ إِلَيكَ فَشالا
إِنَّ العَرارةَ والنُّبُوحَ لِدارمٍ والمُسْتَخِفَّ أَخُوهُمُ الأَثْقالا
المانِعِين الماءَ حتّى يَشْرَبُوا صَفَوَاتِهِ ويُقَسِّمُوهُ سِجالا
وابْنُ المَراغَةِ حابِسٌ أَعْيارَهُ قَذْفَ الغَرِيبَةِ ما يَذُقْنَ بِلالا

في هذه الأبيات تنتظم مجموعة من الثنائيات المتضادة التي اختارها الأخطل لمعانيه في الفخر والهجاء، ففي البيت الأول يوبّخ جريرًا الذي يمنّي نفسه ورهطه أن ينالوا ممّا نالت دارم، ولم يوبّخه الشاعر هذا التوبيخ إلا لما ادّعاه من وضاعة في يربوع إزاء شرف دارم. ويلحّ على هذا المعنى في الشطر الثاني من البيت نفسه ويزيده تفصيلاً، فيوبّخ جريرًا ثانية بموازنته آباءه بآباء الفرزدق حاجب وعقال، فشتّان ما بينهما؛ ولذلك في ثنائية أخرى يصرّح بمعنى الموازنة في (ميزانهم)، حيث يضع قوم جرير في كفّة وقوم الفرزدق في كفّة أخرى، ويقرّر الرجحان للفرزدق ودارم، والخسران لجرير ويربوع. ولا يرسل ادعاءه خاليًا من الأدلة والبراهين، وإنّما يقوّي ذلك ويدعمه بما يؤكّد صحة دعواه، فمن ذلك أنّ الشدّة والاستغاثة والنجدة لدارم وحدهم، وذلك وفق ما يفهم من الثنائية المتضادة التي اشتمل عليها البيت الثالث، فـ (لام) الملكيّة في لفظة (لدارم)، تشي بموازنة وتفرّد، أي أنّ لدارم هذه الصفات وحدهم دون سواهم من البشر.

وهكذا يمضي الشاعر ناسجًا ثنائياته المتنافرة، ففي البيتين الأخيرين معنيان متضادان، يُجسّدان معاني البطولة والبسالة في دارم رهط الفرزدق، ويكرّسان كلّ معاني الذلّ والهوان في يربوع رهط جرير، فدارم هي التي تمنع يربوعًا من شرب الماء، وتشرب في الوقت نفسه من عفواته وصفواته، وحينما تملأ منه السجال والدلاء العظيمة حينذاك يمنع جرير أعياره من الورود خشية من بطش دارم، وتظلّ أعياره عطشى، بل لم تبتل به مجرد البلال. وكما هو معلوم قديمًا أنّ الصراع حول الماء من أعظم الصراعات بين القبائل العربيّة، فقد شغفت العرب في الجاهليّة بالماء؛ لعظمته وندرته عندهم، حتّى صارت تلازم وروده كنايتان متضادتان تعبّران عن العزّة والهوان، فكنوا بشرب الماء صفوًا وعذبًا عن القوّة والمنعة والشجاعة، وكنّوا بشربه كدرًا وطينًا عن الهوان والضعف والضعة، وأحسب أنّ هذا ما أراده الأخطل في البيتين الأخيرين.

وما يلحظ على هذه المفاخر التي صاغها الأخطل أنّها على الرغم مما فيها من تعالٍ إلا أنّها لم تكن في تغلب، وإنّما في دارم رهط الفرزدق، وهذا يؤكّد ما قيل عن أنّ " الفخر عند الأخطل ضئيل هزيل لا يعتمد على مجدٍ قديمٍ، ولا أصلٍ حديثٍ"[٣٠، ص٣٩٠]؛ فهذا العوز جعل الأخطل يفاخر بدارم عندما يهاجي جريرًا أكثر من مفاخرته بتغلب، فمن ذلك معنى آخر في الثنائيات الضديّة يفاخر فيها بدارم[٣٣، ص١١٧]:

قَوْمٌ هُمُ سَبَقُوا أَباكَ إِلىَ العُلا   جَرْيًا وصْرْتَ مُخَلَّفًا مَحْسورا

فالمعنى في البيت يقوم على ثنائيتين متنافرتين، تمثّلتا في الطباق بين (العلا)، و(مخلّفًا)، فالصفة الأولى للفرزدق؛ لأنّه صاعد إلى الأمام نسبًا وجاهًا وشرفًا ومجدًا، والصفة الثانية لجرير؛ لأنّه متخلّف في ذلك كلّه.

وفي القصيدة نفسها يهجو جريرًا بثنائية أخرى، يقول فيها[٣٣، ص١١٧]:

يا شَرَّ مَنْ وَطِئ التُّرابَ قبيلَةً حَيًّا وألأَمَ مَيِّتٍ مَقْبُورا

ففي المعنى موازنة ومفاضلة، وذلك وفق ما يفهم من صيغة التفضيل (شرّ) و(ألأم)، وتبدو الثنائية ماثلة وإن لم يصرّح الشاعر بطرفيها؛ لأنّ فعلي التفضيل (شرّ) و(ألأم) يقتضيان أن يكون هناك طرفان يتجاذبان، والواضح أنّ قوم جرير هم أحد الطرفين، والناس كلّهم هم الطرف الآخر؛ وذلك ليجعل الأخطل جريرًا وقومه في قاع الشرّ، وقعر اللؤم والسوء. وفي بيت آخر من القصيدة نفسها يهجوه بثنائية أخرى يقول فيها[٣٣، ص ١١٧]:

لولا فَوَارِسُ دَارِمٍ لَقُسِمْتُمُ مِثْلَ اقتسام الياسِرِينَ جُزُورا

فأداة الشرط (لولا) التي تفيد امتناع شيء لوجود آخر تحمل في دلالتها ثنائية متنافرة، وهي امتناع هلاك قوم جرير لوجود قوم الفرزدق، والمعنى الذي يريده الشاعر جبن يربوع وشجاعة دارم.

وفي ثنائية من الثنائيات القليلة التي يفتخر فيها الأخطل بقومه يقول[٣٣، ص١٣٤]:

مازالَ فينا رِباطُ الخَيلِ مُعْلِمةً وفي تميمٍ رِباطُ الذُّلِّ والعارِ

فالبيت يتقاسمه طرفان، هما (فينا رباط الخيل)، و(في تميم رباط الذلّ والعار)، فعلى الرغم من أنّ (الذلّ) لا يقابله (الخيل) في المعنى على وجه الحقيقة إلا أنّ بنية التضاد التي يقوم عليها البيت كلّه يحمّل اللفظة هذا المعنى، وكذا ما يفهم من الكناية التي تتضمّنها (رباط الخيل)، وهي كناية عن المنعة والقوة والشجاعة، وتلك سبيل العزّ والشرف؛ ومن ثمّ فإنّ (رباط الخيل) بهذا المفهوم الكنائي يناقض (رباط الذلّ والعار).

وقال الأخطل في هجاء قيس أيضًا مفيدًا من الفضاء الاجتماعي في توليد ثنائياته المتضادة[٣٣، ص١٢٨]:

أَذاقُونا أَسِنَّتَهُمْ وذاقُوا   فكيفَ رأيْتَنا صِرْنا وصارُوا

كلا الرهطين أذاق الآخر أسنّته، ولكن شتّان ما بين المذاقين، وكلا الفريقين نازل الآخر، ولكن فرق كبير بين المصيرين، وما يريد أن يقرّره الأخطل واضح، وهو شدّة بأسهم التي أسفرت عن نصرهم في نهاية المطاف.

وفي الرائية المشهورة (خفّ القطين) يهجو الأخطل بمجموعة من الأبيات فنجد فيها بعض الثنائيات المتضادة التي يحاول بها إخزاء جرير وقومه، يقول في بعضها[٣٣، ص١٦٣- ١٦٥]:

أَمّا كُلَيبُ بْنُ يَرْبُوعٍ فلَيسَ لها   عِنْدَ المَكارِمِ إِيرادٌ ولا صَدَرُ
مُخَلَّفُونَ ويَقْضِي النّاسُ أَمْرَهُمُ   وهُمْ بغيبٍ وفي عَمْياءَ ما شَعَرُوا
بِئسَ الصُّحاةُ وبِئسَ الشُّرْبُ شُرْبُهُمُ   إذا جَرَى فيهِمُ المُزّاءُ والسَّكَرُ
وأَقْسَمَ المَجْدُ حقًّا لا يُحالِفُهُمْ   حتّى يُحالِفَ بَطْنَ الرَّاحةِ الشَّعَرُ

ففي البيت الأول جرّد الأخطل كليبًا من كلّ مكرمة؛ وذلك وفق ما يفهم من الطباق الذين بين (إيراد) و(صدر)، وأراد الشاعر بذلك أنّ كليبًا لا خير في ورودها ولا في صدورها، أي على أي حالة من أحوالها، فالطباق بين اللفظتين كان وراء هذه الدلالة العميقة التي تكشف عن كنه كليب. أمّا البيت الثاني ففيه هجاء مؤلم اشتملت عليه ثنائيتان ضديّتان، الأولى تُفهم من الكناية في الشطر الأول؛ إذ من يقضي الناس أمورهم في غيبته كسقط المتاع؛ لا قيمة له، فالحالان مختلفتان؛ حال جرير وقومه المتخلّفون عن المجد والمكارم، وحال الناس الذين يقضون من ذلك كلّ شيء وهم غير

آبهين بأولئك الخسيسين الضعفاء. أمّا الثنائيّة الأخرى فهي متمثّلة في المفارقة الواردة في الشطر الثاني من البيت نفسه ؛ إذ جعل كليبًا بعد هذا الهوان كلّه لا يدركون ما فاتهم من مكرمة ، وبذلك جرّدهم الشاعر من المكارم والمشاعر معًا. أمّا في البيت الثالث فيؤّكد الشاعر ما قرّره في الأبيات السابقة من هوان خصمه جرير وقومه ، موظّفًا لذلك ثنائية أخرى متمثّلة في الطباق بين (الصحاة) و(الشّرب) ـ وهو السكر في جماعة ـ ليبيّن بهذا التضاد أنّ كليبًا في خمول دائم ؛ إذ هم سواء في صحوهم وسكرهم. أمّا في البيت الأخير فأفاد الشاعر من التنافر الموجود أصلاً بين بطن الراحة والشعر ؛ إذ هما نقيضان لا يجتمعان مطلقًا ؛ فاستعار الأخطل هذا التنافر ووظّفه في تأكيد التنافر الكائن بين المجد وكليب ؛ ليقرّر بذلك كلّه استحالة محالفة المجد كليبًا.

أمّا الثنائيات الضدّيّة التي أتى بها جرير في مفاخرة الأخطل ومهاجاته من النسب وما يتّصل بالأحوال الاجتماعيّة فهي ليست من الكثرة بمكانٍ قياسًا بثنائياته التي ألّفها من نصرانيّة الأخطل ، وأحسب أنّ انشغال جرير بنصرانيّة الأخطل هو السبب في انصرافه عن نسبه ؛ إذ ليس بعد الكفر ذنب ـ كما يقال ـ وأحسب أيضًا أنّه ليس في تغلب ما يشغل باله ؛ ليناقضه ويضعه إزاء ما عند تميم أو رهطه يربوع ؛ فلهذه وتلك قلّت الثنائيات الضديّة المستقاة من النسب والأحوال الاجتماعية في نقائض جرير مع الأخطل ، ولكن على قلّتها نجد فيها جريرًا كان قاسيًا على خصمه ، متعاليًا عليه كدأبه في نقائضه عامّة معه. فمن ذلك هذه المفارقة التي تصوّر نساء تغلب في أبشع صورة ، حيث يقول[٣٣، ص٦٨]:

تقُولُ لَكَ الثّكْلَى المُصابُ حَمِيمُها أَبا مالِكٍ ما في الظَّعائنُ مَغْزَلُ

فما تنتظره التغلبيّة من غزل ولهو ولعب هو أمر يناقض ما هي فيه وما فيه زوجها ، فكيف تفكّر التغلبيّة فيما تفكر فيه وهي ثكلى وزوجها مصاب؟ فهذه مفارقة

تدعو إلى احتقار تغلب كلّها التي ليس في نسائهم شيء من الوفاء بله العفّة التي لا يعرفن عنها شيئًا كما بيّن ذلك جرير أكثر من مرّة. وقد كان الشاعر موفّقًا في صناعة هذه المفارقة وإحكام المعنى، حينما اختار كلمتي (الثكلى) و(المصاب)؛ إذ إنّ هاتين الحالتين وما تتركهما من شعور حزين في النفس، ينبغي أن تكون معهما النفس أبعد ما تكون عن رغبة في غزل ولهو، فالحالة النفسيّة التي عليها الثكلى والمصاب تتناقض تمامًا مع الغزل الذي لا يكون إلا في نفس فرحة مبتهجة لاهية.

وقد كان جرير مكثرًا من المفارقات الغريبة في ثنائياته المتضادة عندما يتعاطى الحالة الاجتماعيّة للأخطل وتغلب، فتكاد تكون كلّ مفارقة أقسى على الأخطل من الأخرى، فمن تلك هذه المفارقة الغريبة التي يقول فيها[٣٣، ص٨٧]:

نُبِّئتُ تَغْلِبَ يَنْكِحُونَ رِجالَهُمْ وَيَرَى نِساؤُهُمُ الحَرامَ حلالا

ففي البيت نبأ غريب وهو أن تغلب تنكح الرجال دون النساء، وتتعاظم الغرابة والمفارقة عندما يكون الحرام عند نسائهم حلالاً، ولكنّ الرجال لا ينالون من حرامهنّ أو حلالهنّ شيئًا، وإنّما هم الذين ينالون من بعضهم بعضًا. ويتعاظم احتقاره لهم في ثنائية ضدّية أخرى حينما يصدر حكمًا عامًّا عليهم في قوله[٣٣، ص١٧٦]:

والتّغْلِبِيُّ إذا تَمَّتْ مُرُوءتُهُ عَبْدٌ يَسُوقُ رِكابَ القَومِ مُؤْتَجَرُ

فهناك تناقض كبير بين المروءة التي تعني كلّ الخصال النبيلة، والعبوديّة التي تحمل كلّ معاني الذلّ والخسّة، ولكنّ المفارقة الغريبة هي أن يجعل الشاعر تمام مروءة التغلبي حينما يكون عبدًا ذليلاً مأجورًا للآخرين. فهذا معنى - وإن لم يتنبّه إليه كثير ممّن عنوا بدراسة النقائض - من المعاني الموفّقة التي جعلت جريرًا مقدّمًا على الأخطل في نقائضه؛ لأنّه أفاد من التناقض المتعارف عليه في الفضاء الاجتماعي بين المروءة التي

تعني كلّ محاسن الأخلاق ومكارمها، والعبوديّة التي تسلب صاحبها كلّ هاتيك الصفات.

وفي ثنائية أخرى يجرّد جرير تغلب من كلّ حلم وعقل، يقول في ذلك [٣٣، ص٩٦]:

وَلَوَ انّ تَغْلِبَ جَمَّعَتْ أَحْلامَها   يَومَ التَّفاضُلِ لَمْ تَزِنْ مِثقالا
تَلْقاهُمُ حُلَماءَ عَنْ أَعْدائها   وعَلَى الصَّديقِ تَراهُمُ جُهّالا

فالملحوظ أنّ التفاضل والموازنة التي اشتمل عليها البيت الأول تشي بتضاد واضحٍ؛ لأنّ المفاضلة لا تتحقق إلا بطرفين ـ ومثلها الموازنة ـ ويكون أحدهما زاد على الآخر في صفة ما؛ ومن ثمّ يكون كأنّه يناقضه ويخالفه، وإن اشتركا في صفة واحدة. فهذا ما قصد إليه جرير الذي أراد بهذا التضاد أن يجرّد تغلب من الحلم تمامًا. ويؤكّد ذلك في ثنائية متضادة واضحة الطرفين في البيت الثاني الذي قابل فيه بين (حلماء...أعداء)، و(الصديق... جهّالا)، ففي هذه مفارقة واضحة تدعو إلى الازدراء بهؤلاء القوم الذين يخالفون النواميس الطبعيّة في المعاملات الإنسانيّة؛ إذ يحسنون إلى من يسيء إليهم، ويسيئون إلى من يحسن إليهم. وقصد جرير من ذلك أن يؤكّد أحد شيئين في تغلب؛ إمّا أنّهم جبناء لا يستطيعون الجهل والطيش على أعدائهم، ويفعلون ذلك بالصديق الذي يأمنون جانبه، وفي ذلك لؤم أصل وعدم وفاء بالصديق، وإمّا أنّهم لا يدركون كيف ينبغي أن تكون الأمور، وفي ذلك غباء وجهل وسذاجة، وفي الأمرين منقضة وسوء يزري بهم.

ولا شكّ أنّ المفاضلة التي جعلها جرير سبيلاً إلى التضاد والتنافر الذي بينه وبين الأخطل، أراد بطرفيها تغلب وتميم، وكلّ ما يمتّ إليهما بصلة، وهذا تؤكّده ثنائية أخرى تحمل معنى المفاضلة نفسها، حيث يقول[٣٣، ص١٩٤]:

فَـنَحْنُ الأَفْـضَلُونَ فَـأيَّ يَـومٍ تَقُـولُ التَّغْلِبِـيُّ رَجـا الفِـضالا

ففي الطرف الأول من الثنائية المتضادة التي قام عليها هذا البيت، يقرّر جرير أنّهم هم الأفضلون، أمّا الطرف الآخر فجعل محتواه استفهامًا يتحدّى به الأخطل بأن يشير إلى يوم واحدٍ رجوا فيه شيئًا من تلك الفضائل ولو يسيرًا، وبهذا يكون المعنى المراد أنّهم الأفضلون، وتغلب الأرذلون.

ثانيًا: نقائض جرير والفرزدق

فرضت طبيعة الصراع في النقائض على جرير والفرزدق ـ على الرغم من وحدة الأصل ـ أن يتكئ كلٌّ منهما على نسبه الأدنى ؛ آبائه الأدنين، وأخواله ـ كما كان الحال عند الفرزدق ـ محاولاً استعلاء نسبه، والفخر بآبائه وأجداده، والطعن في نسب خصمه ورميه بكلّ السوءات والعيوب. ولعلّ الأصل الواحد كان هو الدافع الأعظم إلى تعمّق كلّ منهما في معاني هجائه الآخر، فعندما ضاق الإطار دقّت المعاني وتعمّقت في آنٍ بالخوض في التفاصيل. فمن يقرأ نقائض جرير والفرزدق يجدهما يلحّان على ترديد معانٍ معينة، فكان جرير يكثر في هجاء الفرزدق من معاني القين، وقذف أخته جعثن، وغدرهم بالزبير، والزنا، وخيبته في ضربة الرومي، وكان يفخر بتقواه وأيام يربوع وقيس، أمّا الفرزدق فكانت معانيه في الهجاء ضعة جرير وفقره[٣٠، ص٣٣٠]وأنّه ابن أتان، كما لم تخل من رميه وقومه بالزنا والفواحش. ويلحظ أنّ معاني الفرزدق في الهجاء أقلّ من الفخر، ولكنّه عوّض عن ذلك بالفخر، فكان كثير الافتخار والتباهي بجدّه محيي الموؤودات، والإجارة بقبر أبيه وسائر أجداده[٣٠، ص٣٣٠]. وتلك معانٍ لا يهمّنا منها إلا ما يتّصل بدراستنا المحصورة في الثنائيات الضديّة، فحيث وجدنا شيئًا من ذلك وقفنا عنده وإلا فلن نعبأ بما قيل من هجاء أو فخر بعامّة.

أ) نقائض جرير

لم يجد جرير مثل ما وجده الفرزدق من مآثر، فقد كان أبوه فقيرًا مخلّفًا وضيعًا راعي أغنام، بل بخيلاً [٣٥، ج٨، ص٥٤]، لا نصيب له من كرم أو مجد، ولكنّه مع ذلك ما استكان ولا ضعف أمام خصمه الفرزدق، فظلّ يقارعه بالفخر بيربوع "فقد أذاع جرير مفاخرها وهي كثيرة فيظهر على فقرها كانت معروفة بالشجاعة والإقدام والبلاء في الحروب حتى كان الفرزدق يفتخر بأيام يربوع على قيس عيلان"[٣٠، ص٢٧٥]. بصورة عامّة يمكن القول: إنّ جريرًا كان يجيد الهدم أكثر من البناء، يحسن الهجاء أكثر من الفخر، خلافًا للفرزدق الذي يجد نفسه في الفخر أكثر من الهجاء.كما كانت للسمات الشخصية والملكات الذاتية دور أيضًا في تشكيل الخطاب الشعريّ عند الشاعرين، فقد "كان جرير سفهًا سليط اللسان مرّ الهجاء، وقد ساعده سهولة أسلوبه وسيرورة شعره ... أمّا الفرزدق فمع كثرة معانيه وتنوعّها أعوزه الأسلوب السائر السمح الذي يجعل لهجائه آثارًا بعيدة، وصيتًا عريضًا"[٣٠، ص٤٤٤].

لعلّ من أبرز المعاني المتصلة بالفضاء الاجتماعيّ، واستمدّ منها جرير هجاء الفرزدق الغمز في نسبه، والنسب هو هويّة العربيّ التي تمثّل حياته كلّها، فمن لا نسب له لا قيمة له، في مجتمع متعصّب إلى أصوله ومحتفٍ بجذوره أيّما احتفاءٍ؛ فلذلك كان الغمز في نسب الفرزدق وتعييره إيّاه بأنّه قين في مقدّمة ما هجا به جرير الفرزدق.

وقد نسب جرير الفرزدق إلى قين، ذلك لأنّ جدّ الفرزدق صعصعة بن ناجية بن عقال كان له عبد يسمى جُبَيْرًا فنسب جرير أبا الفرزدق غالبًا إليه، قال في ذلك صراحة[٣٢، ج١، ص٧٨]:

وَجَدْنا جُبَيرًا أبا غالبٍ بَعيدَ القَرابةِ مِنْ مَعْبَدِ
أَتَجْعَلُ ذا الكِيرِ مِنْ دارمٍ وأَينَ سُهَيْلٌ مِنَ الفَرْقَدِ

ففي البيت الأخير ثنائية متضادة كما يفهم من استفهامه الإنكاري الوارد في الشطر الأول منه ، ويؤكّدها التشبيه التمثيلي الذي اشتمل عليه البيت كلّه. فهو ينكر نسبة جدّ الفرزدق إلى دارم ؛ إذ إنّ هذا الجدّ ودارم متناقضان متباعدان مختلفان ، وما بينهما كالذي بين سهيل والفرقد.

ولم يقتصر جرير بالطعن في نسب الفرزدق بمجرد الإشارة إلى أنّه ابن قين ، وإنّما شقّق المعاني المتعلّقة بهذه المهنة ، وغاص في تفاصيلها ، وذلك ابتداءً بذكر أدوات الحدادة وما تتركه من روائح نتنة ، وانتهاء بالإشارة إلى احتقار العرب أهل المهن والصناعة ، بحسبانها تحطّ من قدر صاحبها. كما كان جرير يمعن في تأكيد هذه المهنة على خصمه الفرزدق بشتى أنواع المعاني فـ"يذكر دائمًا أنّ الفرزدق ورث عن أبيه وأجداده أدوات القين كأنّما يثبت أنّهم حقًّا أولاد العبيد القيون"[٣٦ ، ص٣٣٧]. وممّا نجده من الثنائيات المتضادة التي استقاها من الفضاء الاجتماعي الذي يمتهن هذه الحرفة ، ويؤكّد بها الطعن في نسب الفرزدق في آنٍ قوله [٣٢ ، ج٢ ، ص٢٤٥]:

يـا بْـنَ القُيُـونِ وكَيـفَ تَطَلُـبُ مَجْـدَنا   وعَلَيــكَ مِــنْ سِـمَةِ القُيُـونِ نِجــارُ

فالمجد الذي فيه جرير وقومه ومهنة القيون التي عليها الفرزدق ورهطه شيئان متنافران لا يجتمعان ألبتة كما يقرّر ذلك جرير بالاستفهام الإنكاري. ومن ذلك في إشارة ذكية وكناية لطيفة يؤلّف ثنائية متضادة أخرى في هجاء الفرزدق يقول[٣٢ ، ج١ ، ص٣٣٣]:

وإِنَّــكَ يــا بــنَ القَـينِ لَـسْتَ بِنـافِخٍ   بِكِــيرِكَ إلا قاعِــدًا غَــيرَ قــائمِ

فالثنائية الضدّية لا تنحصر في الطباق الظاهر بين (قاعد) و(قائم) ، وإنّما تتجلّى في المعاني المبطّنة التي تكشف عنها الكناية في القعود والقيام ، صحيح أنّ نفخ الكير لا يكون إلا وصاحبه قاعد غير قائم ليتمكّن من النفخ ، غير أنّ هذا المعنى ليس هو الذي

يريده جرير ـ وإن كانت القراءة السطحيّة تجعل المتلقي لا يتجاوز ذلك ـ أمّا ما يقصده الشاعر فهو القعود بمعناه الواسع الفضفاض، أي القعود عن كلّ شرف ومجد وعزّ ومكرمة وفضيلة ومروءة، خلافًا للقيام الذي يعني السعي إلى ذلك كلّه. ويؤكّد خور صاحبه وضعفه في ثنائية أخرى، يجرّده فيها من كلّ شجاعة وإقدام[٣٢، ج١، ص٤٤٠]:

كأنّكَ يا بنَ القَينِ واهِبُ سَيفِهِ لأَعْدائِهِ والحَرْبُ تَغْلِي قُدُورُها

إنّ جملة الحال التي ختم بها الشاعر بيته تجلو المفارقة الدقيقة التي عبّر عنها في هذا البيت كلّه؛ لأنّ إهداء الفرزدق سيفه قد يكون جودًا وكرمًا، ولكن أن يهديه لأعدائه والحرب تستعر فذلك خور منه وضعف وجبن، لا تشبه من يتسم بالرجولة أو يدّعي البطولة في شيءٍ، فالحالة التي فيها الفرزدق تتنافى وإهداء السيف، بل تستدعي جلب السيوف والحرص عليها.

ويلحّ جرير على تأكيد أنّ القيانة وطلب المجد والشرف نقيضان لا يلتقيان في معظم أبياته التي أشار فيها إلى قينية الفرزدق، ويبدأ من هذه الفكرة توليد ثنائياته المتضادة، كما في قوله[٣٢، ج٢، ص٢٤٤]:

إنّا وقَينُكُمُ يُرَقِّعُ كيرَهُ سِرْنا لِنَغْتَصِبَ المُلُوكَ وسارُوا

ففي هذا البيت أمران متنافران؛ الأول هو ما فيه القين جدّ الفرزدق من شغله بترقيع أكياره وحدادته، والثاني ما فيه من سير جرير وقومه نحو العلا وتحقيق المجد بغصب الملوك وقهر الجبابرة، فكأنّ جريرًا يسوق هذين المعنيين ليؤكّد هوان الفرزدق وذلة دارم عامّةً، وعلوّ مجده ورفعة شأن قومه في آنٍ واحدٍ، والضدّ يظهر حسنه الضدّ. وإن كان الحال كذلك فـ[٣٢، ج١، ص٢٥٥]:

نَحْنُ الوُلاةُ لِكُلِّ حَرْبٍ تُتَّقَى إذْ أَنْتَ مُحْتَضِرٌ لِكِيرِكَ صالِ

فيقرّر الشاعر أنّه هو وقومه وحدهم عدّة الحرب وعتادها، وقادتها وأبطالها؛ والسبب هو أنّ الفرزدق وقومه اختاروا أكيارهم وحدادتهم وانشغلوا بها، وهاتان غايتان لا تتشابهان كما يؤكّد الشاعر في أبياته التي يصعب أن نعرض لها كلّها، وحسبنا من ذلك بعض المعاني اللطيفة التي منها هذه المفارقة[٣٢، ج١، ص٢٣٧]:

كَانَ العِنَانُ عَلَى أَبِيكَ مُحَرَّمًا والكَيرُ كَانَ عَلَيْهِ غَيْرَ حَرامِ

فطباق السلب الذي بين (محرّم) و(غير محرّم) تمثّل الإطار العامّ لثنائية تنتظم البيت كلّه، ولا يعني هنا الحرام المفهوم المعروف شرعًا، وإنّما يريد به الإنكار والتقبيح لما عليه الفرزدق وقومه الذين ألفوا الكير والحدادة وأنكروا الطعان والنزال. وإن كان الفرزدق وقومه كذلك، فإنّ قوم الشاعر على نقيضهم تمامًا، فيقول في ذلك[٣٢، ج٢، ص٢٤٤]:

لَيْسَتْ لِقَومِي بالكَتِيفِ تِجارَةٌ لكِنَّ قَومِي بالطِّعانِ تِجارُ

فالشاعر يقرّر في زهوٍ أنّ تجارة قومه ليست كتجارة قوم الفرزدق، فتجارة قومه ليست بالكتيف والحدادة، كتجارة الفرزدق ورهطه، وإنّما تجارتهم بالطعان والنزال، وبون شاسع بين التجارتين، فالأولى تجارة كاسدة خاسرة، والأخرى رائجة رابحة.

ثمّ يأتي جرير بثنائيات متضادة أخرى يستمدّها من هذا الفضاء الاجتماعي فضاء العار والعيب، فضاء المقبول واللامقبول اجتماعيًّا، ثنائيات يقذف بها أخت الفرزدق (جعثن) ويرميها بأقبح أنواع الفواحش. قال أبو عبيدة في قصتها: "كان غالب جاور طلبة بن قيس بن عاصم بالسّيدان فكانت ظمياء بنت طلبة تحدّثُ إلى جعثن فاشتهى الفرزدق حديثها، وشغلت أخته ليلة فأخذ الفرزدق الجُلجُل الذي كانت جعثن تُصفِّق به لظمياء للعادة فارتابت بالفرزدق وهتفت وعادت على رحلها. فلمّا سمِع بأمرها فتيان من مقاعس ... فاستخرجوا جعثن من خبائها ثمّ سحبوها ليُسمِّعوا

بها فعيّره جرير بذلك، ولم يكن أكثر من ذلك، وكلّ ما ادّعى جرير غير هذا باطل، ويقال إنّ جعثن كانت امرأة عفيفة مسلمة صالحة"[٣٢، ج١، ص١٩٥]. وهذه شهادة بيّنة على أنّ كثيرًا من معاني النقائض فيه افتراء عظيم، وكذب كثير، أريد به فقط السباب والإهانة.

فمن الأبيات التي أنشأ فيها جرير ثنائيات ضديّة وتعرّض لجعثن قوله [٣٢، ج١، ٢١٩]:

أتّذْكُرُ صَوْتَ جِعْثِنَ إذْ تُنادي ومَنْشَدَكَ القَلائدَ والخِمارا

فالثنائية تتّجلى في هذه المفارقة الغريبة التي يظهر فيها الفرزدق على خلاف ما ينبغي أن يكون عليه؛ إذ جعثن تستغيث به وتنادي بأعلى صوتها طلبًا للنجاة ممّا أصابها، ولكن الفرزدق كلّ همّه أن تسلم القلائد والخمار وغير ذلك من حليّها، فهذان أمران يتناقضان تمامًا، ولا يشبهان العربيّ الحرّ الغيور على عرضه وشرفه. والمعنى نفسه يؤّكده في البيت التالي، حيث يجعل الفرزدق وقومه على طرفي نقيض[٣٢، ج٢، ص٣٩]:

وما مَنَعَ الأَقْيانُ عُقْرَ فَتاتِهم ولا جارَهُمْ والحُرُّ مِنْ ذاك يأَنَفُ

فما فعله قوم الفرزدق من تفريط في حماية جعثن وجارهم الزبير منكر يأنف منه الحرّ الأبيّ، فعلى هذا هم والأحرار متناقضان.

كذا من المعاني التي شكّلت مادة خصبة للثنائيات الضديّة في هجاء جرير للفرزدق غدر مجاشع بالزبير، وهذه من الحقائق القليلة التي لاكها لسان جرير في هجاء الفرزدق، وقصة ذلك أنّ الزبير استجار النعر بن الزمام المجاشعيّ، وغدر به بعض رجاله، على الرغم من مناشدة الزبير لهم، وتذكيرهم بجواره[٣٢، ج١، ص٨١]، فوجد جرير في ذلك فرصة لم يضيّعها في تعيير الفرزدق بفعلة قومه مجاشع؛ إذ الغدر

من الكبائر الاجتماعيّة التي لا تغتفر عند العرب. فنسج من تلك الحادثة ثنائيات متضادة تناول فيها معاني الوفاء والغدر، وما يتناسل منها من معانٍ، فمن ذلك قوله[٣٢، ج٢، ص١٩٥]:

فَبُعْدًا لِقَوْمٍ أَجارُوا الزُّبيرَ … وأَمّا الزُّبيرُ فلا يَبْعدِ

فقد بنى الشاعر ثنائيته المتضادة على طباق السلب الصريح الذي بين (بعدًا) و(ولا يبعد)، وأحسب أنّ في البنية تكلّفًا؛ لأنّه أراد الدعاء على رهط الفرزدق بالبعد عن كلّ مروءة ومكرمة، أمّا الدعاء للزبير فلا أحسب إتيانه به إلا لتمام بنية التضاد، وتكملة البيت.

وقد كانت من الحوادث الواقعيّة التي أفادت جريرًا كثيرًا في مواجهة خصمه الفرزدق حادثة نبو السيف، وذلك عندما رجع سليمان بن عبدالملك من الحجّ وتلقّوه في المدينة بجماعة من الأسرى، فطلب ممّن حوله أن يضرب كلّ منهم رأس أسير، فضرب جرير فأصاب، وضرب الفرزدق فأخطأ، فضحك عليه القوم بذلك [٣٢، ج١، ص٣٢٢]، وظلّ جرير يشمت عليه بذلك طوال نقائضه معه.

يقول جرير في ذلك مفيدًا من هذه الحادثة، وحادثة أخرى تسمى عقر النيب، مزاوجًا بين الحادثتين اللتين بطبيعتهما شكلتا ثنائية متضادة، حيث إخفاق الضرب في الأولى، والإصابة في الثانية، ولكن لا هذه ولا تلك لم ترضِ جريرًا الذي يقول[٣٢، ج١، ص٣٤٤- ٣٤٨]:

ولَمْ تَشْهَدِ الجَونَينِ والشِّعْبَ ذا … وشَدَّاتِ قَيسٍ يَومَ دَيرِ الجَماجِمِ
أَكَلَّفْتَ قَيسًا أَنْ نَبَا سَيفُ غالِبٍ … وشاعَتْ لَهُ أُحْدُوثَةٌ في المَواسِمِ

بِسَيْفِ أَبِي رَغْوَانَ سَيْفِ مُجاشِعٍ   ضَرَبْتَ ولَمْ تَضْرِبْ بِسيفِ ابنِ ظالِمِ(٤)
ضَرَبْتَ بِهِ عِنْدَ الإمامِ فأُرْعِشَتْ   يَداكَ وقالُوا مُحْدَثٌ غَيرُ صارِمِ
ضَرَبْتَ بِهِ عُرْقُوبَ نابٍ بِصَوْأرٍ   ولا تَضْرِبُونَ البَيضَ تَحْتَ الغَماغِمِ
عَنِيفٌ بِهزِّ السَّيفِ قَينُ مُجاشِعٍ   رَفِيقٌ بأُخْراتِ الفُؤُوسِ الكَرازِمِ

في هذه الأبيات "يعرض جرير للفرزدق مقابلات مختلفة لفعال قومه يربوعٍ وحادثة لوالده، ويستغرب من مقابلة هذه الحوادث الكثيرة الجليلة التي قام بها اليربوعيون بقتل أعدائهم والفتك بهم في حادثة عقر النيب"[٣٧، ص٢٧٦].وهذه المقابلات بعضها ظاهرة، وأخرى خفية، ففي البيت الأول يعيّر جرير الفرزدق بأنّه لم يشهد يوم الجونين، ذلك اليوم الذي كان ليربوع على بني كلاب من قيس [٣٢، ج١، ص٣٤٢]. كما لم يشهد بلاء قيس يوم دير الجماجم، وبطبيعة الحال يعني الشاعر أنّه قد شهدها؛ لأنّ هنا نبرة الخطاب توحي بذلك، ثمّ يعيّره في الأبيات التالية بحادثة السيف التي بنى عليها ثنائيات متضادة كثيرة، في معانٍ عامّة تتضمن موازنة بين شجاعة قومه وقوم الفرزدق، على نحو ما نقرأ في الأبيات السابقة. فالسيف عنده سيفان؛ ليضاد بينهما؛ فضرب الفرزدق بالأول وهو سيف جدّه أبي رغوان، ولم يضرب بالآخر وهو سيف الفارس الهمام الحارث بن ظالم المرّي، وهو أحد فرسان العرب المشهورين، وشتّان ما بين سيف من يرغو في الحرب، وسيف من يجذّ الرقاب جذًّا أمام الملوك والرؤساء كابن ظالم.

---

(٤) بنو رغوان هم بنو مجاشع، ولقّبوا بذلك؛ لأنّ مجاشعًا كان يخطب في أحد المواسم، فقالت عنه امرأة: كأنّه يرغو. أبوعبيدة، "نقائض جرير والفرزدق"،[٣٢، ص٧٨]، أمّا ابن ظالم فهو الحارث بن ظالم المرّي، وهو أحد فرسان العرب. المرجع السابق،[ج١، ص٣٢٣].

وفي البيت الرابع ينشئ ثنائية أخرى عن السيف وضربه أيضًا ؛ ليمعن في التعبير عن جبن الفرزدق وخوره ، حيث ذكّره بأنّه ضرب بالسيف ضربة ترعش عند الإمام ويعني به سليمان بن عبدالملك ، وقيل العيب في السيف ولكنّ العيب فيه هو ، ففي عبارته (عند الإمام) إيحاء بسخرية من الفرزدق الذي لا يحسن الأمور أمام الكبار دائمًا. وقد خالف الفرزدق ما يجب أن يعمل فيه وبه السيف ؛ إذ يضرب به عراقيب النوق ، وليس رؤوس الأبطال في ساحات الوغى ، وفي ذلك إشارة إلى معاقرة غالب أبي الفرزدق يوم صوأر سحيم الرّياحيّ[٣٢ ، ج١ ، ص٣٤٤].

وتكتمل الصورة المخزية للفرزدق عندما يجمع جرير الصفات السابقة إلى صفته الرئيسة اللاصقة به ضربة لازب ، وهي نسبته إلى القيون ، وانشغاله بالحدادة عن طلب الشرف والمجد ، ففي ثنائيّة متضادة رائعة يختم بها جرير هذه اللوحة التي اختار لها ألوانًا متناقضة لكنّها متناسقة ، ومتنافرة غير أنّها متجانسة ، وهي أنّ الفرزدق عنيف بهزّ السيوف - وإن كان لا يفعل بها ما يفعل الأبطال - ورفيق في آنٍ بفؤوس الحدادة ، فأنّى تجتمع هاتان الصفتان في من ينشد الشرف ويرجو المجد؟!

فيبدو واضحًا أنّ جريرًا نسج هذه الثنائيات المتضادة ليعبّر لنا عن ضعف صاحبه وخوره ، وأحسب أنّه قد أجاد ذلك ؛ لأنّه لو لم يأت إلا بالثنائية المتنافرة التي جمع فيها بين سيف الفرزدق وسيف ابن ظالم ، لكفاه ذلك ، بله هاتيك الثنائيات المتضادة الدقيقة التي شققها من حادثة السيف ، فتلك حادثة قد تمرّ على شاعر آخر دون أن يعبأ بها أو يعيرها شيئًا من الاهتمام.

وألحّ جرير على حادثة السيف إلحاحًا عظيمًا ، سيما في تأليف هذه الثنائيات المتضادة ، وربّما سبب ذلك أنّها من الحوادث القلائل التي وقعت حقيقة ، ولم يفتعلها الشاعر كما افتعل بعض الأكاذيب الأخرى ، كقصص نوار زوج الفرزدق وجعثن

أخته، والطعن في نسبه، كما أنّ جريرًا أفاد أيضًا من رمزية السيف ودلالته على الشجاعة والفروسية والبطولة في الفضاء الثقافي عند العرب، ففي الأبيات الآتية ثنائيات أخرى أنشأها من الحادثة المذكورة[٣٢، ج٢، ص٣٥]:

تَرَفَّقْتَ بالكِيرَينِ قَينَ مُجاشِعٍ   وأَنْتَ بِهَزِّ المَشْرَفِيَّةِ أَعْنَفُ
وتُنْكِرُ هَزَّ المَشْرَفِيِّ يَمِينُهُ   ويَعْرِفُ كَفَّيْهِ الإِناءُ المُكَتَّفُ
ولَوْ كُنْتَ منّا يا ابنَ شِعْرَةَ ما نبا   بِكَفَيَّكَ مَصْقُولُ الحديدةِ مُرْهَفُ
عَرَفْتُمْ لنا الغُرَّ السَّوابِقَ قَبْلَكُمْ   وكانَ لِقَيْنَيكَ السُّكَيْتُ المُخَلَّفُ
نُعِضُّ المُلُوكَ الدَّارِعِينَ سُيُوفَنا   ودَفُّك مِنْ نفّاخَةِ الكِيرِ أَجْنَفُ

فالثنائيات المتضادة لم تنحصر في الطباقات الواردة بين (ترفّق) و(أعنف) أو بين (تنكر) و(يعرف) و(السوابق) و(السكيت المخلّف) وحده - وإن كانت هي أجلاها - في هذه الأبيات، وإنّما اشتملت بنية الأبيات كلّها على تضاد، حيث توزّعت جملة من الثنائيات المتناقضة في هذه الأبيات، ففي البيت الأوّل يكرّر ما ذكره في الأبيات السابقة في عنف الفرزدق في هزّ السيف، وترفّقه بالكيرين، ولا أحسب الترفّق والعنف اللذين يريدهما هنا وفي الأبيات السابقة هما الترفّق والعنف المعروفان، وإنّما العنف هنا الطيش وعدم تسديد الهدف، والترفّق هو الألفة والمؤانسة، وهكذا يستقيم المعنيان مع مراد الشاعر من الهجاء؛ فمن ثمّ يكون في البيت مفارقة تتجلّى في وضع الشيء في غير موضعه، فالطيش مع السيف وحقّه إجادة الضرب به، والترفّق والألفة للكير وحقّه أن يبغض ويُتأفّف منه. ويستأنف المعنى نفسه في البيت الثاني، فيقابل في ثنائية ضديّة أخرى بين إنكار يمين الفرزدق هزّ السيف والضرب به، ومعرفتها الحدادة وإجادتها ليّ الكتوف، فالمقابلة بين المعنيين تبيّن أنّ يد الشاعر ألفت هذه المهنة الوضيعة حتّى جهلت

الضرب بالسيف، ولكنّه في الوقت نفسه صارت الأواني تعرف هذه اليد وتأنس لها ؛ لترفقها بها، وأنسها بها. فيلحظ أنّ الشاعر في هذه المقابلة جعل الإنكار من اليمين لهزّ السيف، والمعرفة من الإناء لليمين أو الكفين، وكان موفّقًا مجيدًا في ذلك ؛ لأنّه أراد أن يبيّن أنّ اليد عندما أنكرت الضرب بالسيف عرفتها الأواني والحدادة، وذلك إمعانًا من الشاعر في هجاء الفرزدق الذي صار وضيعًا ولا تعرفه إلا الأشياء الوضيعة كالأواني والكير وأدوات الحدادة.

أمّا في البيت الثالث فثنائية بين الذات والآخر، الذات بمفهومها الواسع الذي يمثّل الجماعة والرهط والقبيلة، وكذا الآخر بمفهومه الواسع الذي يشمل الآخرين كلّهم، فجرير ينعى على الفرزدق أنّه لم يكن من رهطه، وإنّما من رهط آخر ؛ فلو كان من رهطه لما نبا السيف بكفيه، ولعرف كيف يكون الضرب به. ثمّ يأتي بثنائية أخرى بين الذات والآخر بمفهومهما الوارد في البيت الرابع، وهي ثنائية تجسّد كلّ معاني الماضي وتاريخه، حيث كان جرير وقومه أهل فروسية وشجاعة وإقدام، ويقابل ذلك قوم الفرزدق المتخلّفون عن طلب المجد والبحث عن العلا. وتفهم هذه المعاني من الكنايتين اللتين أوردهما في شطري البيت المذكور. وفي ثنائية مشابهة يؤكّد المعاني السابقة نفسها في البيت الأخير، حيث يقابل بين معنيين ؛ الأول قتلهم الملوك الفرسان بسيوفهم البتّارة، والثاني الحال البائسة التي فيها الفرزدق ورهطه من نفخ الكير الذي أمال جنوبهم وأوجع ظهورهم من كثرة القعود، وفي البيت أيضًا كنايتان، الأولى عن المجد والشرف، وهو ما عليه الشاعر وقومه، والثانية عن الهوان والذلّ، وهو ما فيه الفرزدق وجماعته.

يضاف إلى المعاني السابقة التي شكّلت معاني جرير في النقائض، معانٍ أخرى لا تتّصل بحوادث محدّدة ولكنّها مستقاة من الفضاء الاجتماعيّ عامّة ؛ لأنّها مستمدّة

من ثقافة "العيب" ، أو كلّ ما يناقض قيم الجماعة التي ينتمي إليها الشاعران. وقد عبّر عنها جرير في ثنائياته الضديّة موظّفًا في ذلك رموز الذكورة والأنوثة ، ودلالات اللّحى ، وغير ذلك من السمات اللازم توافرها في الرجل دون المرأة. فمن ذلك هذه المفارقة اللطيفة التي تحمل في طياتها ما يدعو إلى السخريّة والاستهزاء برجال مجاشع[٣٢ ، ج٢ ، ص٢٦٥]:

تَلْقَى ضِفِنَّ مُجاشِعٍ ذا لَحْيَةٍ وَلَهُ إذا وَضَعَ الإِزارَ حِرانِ

فهذه صورة كاركاتيريّة ساخرة للمجاشعيّ ؛ لأنّها تنطوي على مفارقة تدعو إلى الضحك ، حيث ترى المجاشعيّ في ظاهر هيئته ضخم الجثّة ، كبير الحجم ، كثّ اللحية ، غير أنّ تحت إزاره حرين ، وليس حرًا واحدًا ، فاللحية والحرّ عضوان لا يجتمعان في امرئ بطبيعة الحال ، لرمزية الأول للرجولة ، ودلالة الثاني على الأنوثة ، ولكنّهما اجتمعا في المجاشعيّ كما يدّعي جرير ؛ ليقدّم بذلك صورة مهجّنة مشوّهة للمجاشعي ، تجعل النفس الإنسانيّة مستكرهة له ، نافرة منها.

واللحية صورة توحي بالوقار وتدعو إلى احترام صاحبها عادّة ، غير أنّ جريرًا فرّغ لحى أعدائه من هذا المحتوى ، وجعلها دالة على كلّ ما يخالف ذلك ، يقول في بعض أبياته [٣٢ ، ج٢ ، ص٣٥٢]:

لأعْظَمِ غَدْرَةٍ نَفَشُوا لُحاهُمْ غَدَاةَ العِرْقِ أَسْفَلَ مِنْ سِنامِ

فاللحية والغدر متناقضان ؛ لأنّ اللحية كما ذكرنا توحي بالأمان وتشعر بالسلامة من صاحبها ؛ لأنّها تدلّ على حسن دينه وسلامة أخلاقه ـ أو ينبغي أن تكون كذلك ـ أمّا الغدر فبئس الخلق ، وشرّ الصفات ؛ فلذلك هما نقيضان لا يلتقيان ، ولكنّ قالب المفارقة التي يصوغ فيها جرير عادة معانيه استوعب المعنيين على تنافرهما.

وهكذا يفيد جرير من القيم الاجتماعيّة وأخلاق الجماعة وما تعارفوا عليه، وما أنكروه على الرجل أن يتّصف به، فتارة في ثنائية ضدّيّة غريبة يجعل نفسه بعلاً للفرزدق، مجرّدًا بذلك الفرزدق من كلّ صفات الرجال، يقول في ذلك[٣٢، ج٢، ص٨٠]:

لَبِسْتُ أَداتِي والفَرَزْدَقُ لُعْبَةٌ   عَلَيهِ وِشاحا كُرَّجٍ وجَلاجِلُهْ
أَعِدُّوا مَعَ الحَلْيِ المَلابَ فإنّما   جريرٌ لَكُمْ بَعْلٌ وأَنْتُمْ حَلائِلُهْ
وأَعْطُوا كما أَعْطَتْ عَوانٌ حَلِيلَها   أَقَرَّتْ لِبَعْلٍ بَعْدَ بَعْلٍ تُراسِلُهْ

أفاد جرير في هذه الأبيات من حادثة معينة يقال إنّه التقى فيها مع الفرزدق، وقد لبس درعًا وسلاحًا، ولبس الفرزدق ثياب وشيٍ وسوارًا[٣٢، ج٢، ص٨٠]. فأفاد من هاتين الهيئتين المتناقضتين؛ هيئة تدلّ على كلّ صفات الرجولة والبطولة، والأخرى توحي بصفات المتشبهين بالنساء من الرجال، فالموقف نفسه ولّد صورتين متباينتين، فهو كما يقول جرير عن نفسه أنّه لبس سلاحه، والفرزدق عليه وشاح هؤلاء المتشبهين بالنساء، فكان ذلك سببًا كافيًا؛ ليجعل نفسه بعلاً للفرزدق الذي صار زوجًا له، وصار جرير يطلب منه كلّ ما يطلب الزوج من زوجه، بل إمعانًا في الإهانة لم يجعله زوجًا بكرًا، وإنّما هو زوج عوان ذات خبرة بالرجال ومطالبهم، طيّعة لهم مطيعة لطلباتهم. فهذه الصورة في كلّ تفاصيلها أفاد فيها جرير من الفضاء الاجتماعي المتعلّق بالزوجين، وما أعدّ كلّ منهما له، فهما يمثلان نقيضين، ولكنّ ما تقوم به الزوج لزوجها ليس بعارٍ عليها؛ لأنّ ذلك ينسجم مع الفطرة البشريّة، أما أن يُنزّل رجل منزلتها فذلك قمّة الإهانة والإساءة إليه كما فعل جرير بصاحبه.

ب) نقائض الفرزدق

يمتزج في النقائض عادةً الفخر بالهجاء، فمن الأوّل ينفذ الشاعر إلى الآخر، ويكون أوضح ما يكون ذلك في نقائض الفرزدق، وقد لاحظ ذلك أحد الدارسين،

قائلاً : "الغالب على القصائد التي بدأ بها الفرزدق هاجيًا جريرًا ، الغالب عليها عنصر الفخر المتطاول المتعالي ، ثمّ يليه هجاء تلوح عليه سمات الاحتقار المباشر الشديد... ولعلّ هذا راجع إلى محتد الفرزدق وحسبه في الجاهليّة والإسلام من جهة ، وما عرف عن جرير من دقّة الأصل وخسّته من جهة أخرى"[٣٨ ، ص٣٢٥].

ولكن كان الهجاء أضعف حضورًا من الفخر في نقائض الفرزدق ، حتى تكاد تنحصر المعاني التي هجا بها الفرزدق جريرًا في معانٍ محدودة ، وهي وضاعة نسبه ، ومهنة أبيه في رعي الغنمّ وتعييره بأنّه ابن أتان ـ والأتان أنثى الحمار ـ وغير ذلك من المعاني التي اختلقها من هذه المهنة في هجائه. وقد يكون الفرزدق أكثر تعمّقًا وأحسن تشقيقًا لمعانيه في الهجاء التي كانت محدودة موازنة بمعاني جرير ، ولكن من الغريب أن ينسب إلى الأخفش أنّ جريرًا لم يهج الفرزدق إلا بثلاث صفات يكرّرها في جميع شعره ، وهي أخته جعثن ، والغدر بالزبير ، وأنّه ابن قين[٣٩ ، ص١٦٧].أمّا الفرزدق فكان في كلّ قصيدة يأتي بمعنى بديع[٣٩ ، ص١٦٩]. فديوان النقائض يدحض هذا الحكم ، فلو قيل ذلك عن معاني الفخر عند الفرزدق لكان أدعى إلى القبول وأقرب إلى الإقناع ؛ وذلك لرصيد الفرزدق من المجد ، وفقر جرير إلى ذلك.

وتأتي أبرز المعاني المتّصلة بالفضاء الاجتماعي في نقائض الفرزدق ، ما أفاده من امتهان جرير وقومه مهنة الرعي ، فكان ذلك سببًا كافيًا إلى أن ينسبه إلى المراغة ، ويجعله ابن أتان ، ويخوض في تفاصيل المعاني وتوليد الصفات من هذه المهنة ، على نحو ما كان يفعل معه جرير عندما نسبه إلى القيون. ألحّ الفرزدق على هذه الصفة لتكون مقابلاً لما يعبث به جرير في نسبه ، وهنا تتجلّى أهميّة استصحاب النصّ الغائب في قراءة نصّ النقائض بعامّة ، فهو يشكّل بعدًا مهمًّا في قراءة النصّ الحاضر وفهمه[٢٨ ، ص٢٢٧].

فمثلما فعل جرير بالفرزدق في النيل من أبيه ؛ لبيان سوء نسبه ، فعل به الفرزدق الذي أفاد كثيرًا من وضاعة جرير برعي أبيه الأغنام ، وتخلّفه في المجد والشرف ، فكان ذلك مصدرًا مهمًّا لثنائياته الضديّة في هجائه ، فمن ذلك قوله فيه[٣٢، ج٢ ، ص١٢٧ ، ١٢٨]:

أَمِنْ جَزَعٍ أَنْ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ غالِبٍ   أَبُوكَ الَّذي يَمْشِي بِرِبْقٍ مُوَصَّلِ
ظَلِلْتَ تُصادِي عَنْ عَطِيَّةَ قائِمًا   لِتَضْرِبَ أَعْلَى رَأْسِهِ غَيرَ مُؤْتَلِ
لَكَ الوَيْلُ لا تَقْتُلْ عَطِيَّةَ إِنَّهُ   أَبُوكَ ولكِنْ غَيرَهُ فَتَبَدَّلِ
وبادِلْ بِهِ مِنْ قَومِ بِضْعَةَ مِثْلَهُ   أَبًا شَرَّ ذِي نَعْلَينِ أَوْ غَيرَ مُنْعَلِ
فَإِنْ هُمْ أَبَوا أَنْ يَقْبَلُوهُ ولَمْ تَجِدْ   فِراقًا لَهُ إِلا الَّذِي رُمْتَ فافْعَلِ

تضمّنت هذه الأبيات مجموعة من الثنائيات المتضادّة التي تهدف كلّها إلى إخزاء جرير بحطّ قدر أبيه ، فعبارة "مثل غالب أبوك" الواردة في البيت الأول فيها إشارة واضحة إلى البون الكبير بين اثنين مختلفين تمام الاختلاف ؛ غالب أبي الفرزدق ، وعطية أبي جرير ، اختلافًا جعل جريرًا يضيق ذرعًا بأبيه حتّى رام قتله ـ كما يزعم الفرزدق ـ ويقترح له الفرزدق حلاً وبديلاً من قتل أبيه في ثنائية متضادة أخرى وفي سخرية لاذعة بجرير ؛ إذ ينصحه أن يبدّله بآخر ، عسى أن يكون خيرًا منه ، فعطية والآخر يشكّلان ثنائية مختلفة كما يبدو من قول الفرزدق ، ولكنّ الفرزدق يمعن أكثر في التهكّم به ، والسخرية منه ، فيقترح عليه أن يكون الآخر المختلف عن أبيه من قوم بضعة(٥) ، فأيّ آخر هذا الذي يوصي به الفرزدق ، وهو أسير عبد رقيق لا قيمة له؟! وتتعاظم إهانة

---

(٥) هم مجموعة من بني عبشمس سباهم رجل من بني سعد، فنحر جزورًا، وقال من يأخذ منّي هؤلاء ببضعة من لحم، وذلك لخساستهم، ومن سمّوا "بضعة". أبو عبيدة، "نقائض جرير والفرزدق"[٣٢، ج٢، ص١٢٧].

الفرزدق لخصمه عندما يجعل الآخر على وضاعته غير راضٍ بعطية، وعندئذٍ يعود الفرزدق إلى ما أراد خصمه فعله بأبيه وهو القتل، فيقترحه بديلاً مناسبًا للتخلّص من عطية، فالفراق الذي شكّل منه الفرزدق معانيه في هجاء جرير، جعله فراقين متناقضين؛ فراقًا بالبدل والتعويض عن عطية المراد التخلّص منه، وفراقًا بالقتل، وفي كليهما غاية الإهانة والإساءة إلى جرير وأبيه.

وحينما يفخر جرير بقيس متناسيًا حال عطية، لا يفوت الفرزدق ذلك أن يعيّره به، ففي ثنائية ضديّة أخرى في هذا الفضاء يقول الفرزدق[٣٢، ج٢، ص١٧٣]:

وفَخْرُكَ يا جريرُ وأَنتَ عَبْدٌ   لِغَيرِ أَبِيكَ إِحْدَى المُنْكراتِ

ففي البيت مفارقة تضع جريرًا في هوان بالغٍ؛ إذ كيف يفخر بقيس، وهو عبد؛ فذلك فعل ـ كما يرى الفرزدق ـ واحدة من المنكرات القبيحات؛ لوضع الشيء في غير موضعه، وفعل المرء ما لا يليق به.

وفي موضع آخر يؤلّف الشاعر ثنائية متضادة أخرى يقرّر بها أنّ كلّ ما بذله جرير من أجل أن يستعيض به عن أبيه، لم ينفعه شيئًا، ولم يغنه فتيلاً، فمن ذلك ضربة الرومي التي كثيرًا ما افتخر بها جرير وعيّر بها الفرزدق بخيبته فيها، يقول في ذلك الفرزدق[٣٢، ج٢، ص١٥٨]:

فَهَلْ ضَرْبَةُ الرُّوميِّ جاعِلَةٌ لَكُمْ   أَبًا عَنْ كُليبٍ أَوْ أَبًا مِثْلَ دارِمِ

فالفرزدق يقرّ بفشله في ضربة السيف، وتوفيق جرير في ذلك، لكنّه من أمرها، مدعيًا أنّ ضربة الرومي لا تفيد جريرًا شيئًا؛ إذ لا تعوّضه عن الأب الشريف المفقود، ولا تجعل له أبًا كأب دارم أبي الفرزدق، فصورة أبي جرير (عطية) غائبة عن النصّ، ولكنّها تبدو حاضرة كما يفهم من الإشارة إلى صورة أبي دارم، وهذا ما يجعل البيت متضمّنًا ثنائية ضديّة، وإن لم يصرّح بها الشاعر.

وقد عبث الفرزدق كلّ هذا العبث بأبي جرير ؛ لامتهانه الرعي ، ومن هذه المهنة يأتي الفرزدق بثنائيات ضدّيّة مختلفة ، موازنًا في ذلك بين حال آبائه وحال هذا الأب الوضيع الصنعة والنسب ، فمن ذلك قوله[٣٢ ، ج١ ، ص١٧٦]:

إنّا لنَضْرِبُ رَأْسَ كُلَّ قَبيلةٍ وأَبُوكَ خَلْفَ أَتانِهِ يُتَقَمَّلُ

فالشاعران في حالين مختلفتين ؛ الفرزدق وقومه يصنعون الشرف ويحققّون المجد بضرب رؤوس القبائل ، وجذّ رقاب الأعادي ، ويقابل ذلك ما عليه جرير ورهطه من وضاعة وخمول أقعدهم عمّا عليه رهط الفرزدق ، وذلك لانشغالهم برعاية الأغنام ، حتّى صار عطية يلازم أتانه كأنّها جزء منه.

وعندما يتجاوز الفرزدق أبا جرير إلى كليب عامّة يأتينا بثنائيات متنافرة أخرى ليجمل بها الحكم عن وضاعة جرير ورهطه كلّه ، فمن ذلك قوله[٣٢ ، ج٢ ، ص١١٩]:

وكُلُّ فَطيمٍ يَنْتَهِي لِفِطامِهِ وكُلُّ كُلَيبِيٍّ وإنْ شابَ راضِعُ

فهذه مفارقة أخرى مخزية لجرير وقومه ، فالتقابل الذي أنشأه الفرزدق بين كليب والآخرين ، يجعل المتلقي يُنكر على كليب ما هم فيه من تخلّفٍ عن الناس واختلاف عنهم في كلّ شيء ، فالمعلوم أنّ كلّ رضيعٍ حينما يكبر يفطم فينفطم ، غير أنّ الكليبيّ - كما يدّعي الفرزدق - يبقى راضعًا وهو في شيبه ، أي يظلّ ملازمًا جهله وطيشه وطفولته في كلّ فعل من أفعاله ، فعلى الرغم من أنّ المعنى المعجمي لـ"راضع" هو اللئيم إلا أنّ ما يفهم من استخدام الشاعر أراد به الرضاعة التي تقابل الفطام ؛ ليتحقّق المعنى الشعري على نحو ما بيّنا . وعلى هذا فإنّ الفرزدق - كما يقرّر في موضع آخر - هو وصحبه جرير في سبيلين مختلفين[٣٢ ، ج١ ، ص١٧٩]:

فَاللُّؤْمُ يَمْنَعُ مِنْكُمُ أَنْ تَحْتَبُوا والعِزُّ يَمْنَعُ حَبْوَتِي لا تُحْلَلُ

ففي هذه الثنائية الضدّيّة يلخّص لنا الشاعر الفرق الجوهريّ بين قومه وقوم جرير، فاللؤم والعزّ - بكلّ ما تحمل هاتان الكلمتان من تضاد - يحددان التضاد والتنافر الكائن بين الشاعرين؛ فالأولى تمنع كلّ مكرمة وتحول دون كلّ شرفٍ، والثانية تمنع كلّ مذّلة وتحمي عن كلّ هوانٍ.

وإن كان الفرق بينهما كذلك فرهان جرير على علوّ كعبه وارتفاع مقامه عن مقام الفرزدق رهان خاسر؛ وذلك كما يفهم من قول الفرزدق[٣٢، ج١، ص٢٢٧]:

فَإِنَّكَ والرِّهانَ على كُلَيبٍ لكالمُجْرِي مَعَ الفَرَسِ الحِمارا

مَساعِينا التي كَرُمَتْ وطابَتْ تقيسُ بهِ مساعِيَكَ القِصارا

فالرهان عادة يكون بين شيئين متناقضين متصارعين متنافسين، ولكنّه يغدو رهانًا غير محسوب النتائج عندما يكون بين اثنين؛ أحدهما رفيع الشأن كالفرزدق، والآخر وضيع المقام كجرير - كما يزعم الفرزدق - فذلك رهان أشبه بمن يجري الفرس مع الحمار، وأيّ تناقض بين الاثنين؟ فالواضح أنّ الفرزدق يعوّل على ثقافة المتلقّي التي تجعله يدرك ما بين الحمار والفرس من تباين واختلاف بيّن؛ فمن ثمّ ينشئ ثنائية ضديّة باستفهام إنكاري محذوف الأداة في البيت الثاني لينكر ما يدّعيه جرير في قياس مساعيه بمساعيه، فمساعي الفرزدق - كما يدّعي - كرمت وطابت، أمّا مساعي جرير فقصرت وخابت.

لقد جاءت نقائض جرير والفرزدق متضمّنة عددًا مهولاً من الأشعار شملت ثنائيات ضديّة مستمدة من الفضاء الاجتماعيّ، من نسب وعصبية إلى الجماعة، وما يتّصل بذلك من مكارم ومخازٍ، موظّفين في ذلك الحوادث الاجتماعيّة المختلفة التي

ظلّت مصدرًا مهمًّا لهذه الثنائيات الضدّيّة ، غير أنّ طبيعة هذه الصفحات المحدودات لا تجود بمجال أوسع ممّا سبق ، لنتوسّع في الحديث عن ذلك.

المبحث الثالث: الفضاء الدينيّ

لم يزل العصر الأمويّ قريب عهد بصدر الإسلام ، ومافتئ للإسلام حضور قويّ في ثقافة الفرد والمجتمع ، فقد انفعل علماء هذا العصر بالإسلام عقيدة وفقهًا وتفسيرًا وفلسفة ، حتى شهد العصر بعامّة حراكًا دينيًّا نشطًا تجلّى في حركة المذاهب والطوائف الإسلاميّة المختلفة ، من شيعة وخوارج وقدريين وجبريين ومعتزلة.

ولحضور الدين في المجتمع كان من الطبعيّ بمكانٍ أن يكون له حضور في الشعر أيضًا ، وأن يرفد الشعراء عامّة بمعانيه ومفاهيمه ، وكانت النقائض أحوج ما تكون إلى هذه المادة الدينيّة لتشكّل منها ثنائيّاتها الضديّة ، وما أكثر هذه الثنائيات المتضادة المتأثّرة بالفضاء الدينيّ! فكانت ثنائية الإسلام والكفر هي الإطار الكبير الذي احتوى عليه هذا الفضاء ، ثمّ تفرّعت عنها ثنائيات ضديّة أخرى متعددة ، كالطهر /النجاسة ، والعفّة/ الفحش ، والتقوى/ الفجور ، والحلال /الحرام ، والصدق/ الكذب وغيرها من المتناقضات والمتضادات التي لا تفهم إلا ضمن مفاهيم الفضاء الدينيّ.

لم تنحصر الثنائيّات الضّدّيّة الدينيّة التي أفادها شعراء النقائض - جرير بخاصة - في دائرة المفردات والمعاني السطحيّة العامّة فحسب ، وإنّما تعدّت ذلك إلى معانٍ جزئية دقيقة عكست فهمًا عميقًا لفلسفة الإسلام وثقافته وما تركته هذه الثقافة من سمت خاصّ للمجتمع المسلم بعامّة ، والشخصيّة الإسلاميّة بخاصة.

وظّف جرير هذا الفضاء الدينيّ في نقائضه مع خصميه ، توظيفًا جعله يتفرّد عنهما ، وقد كانت هناك بعض الظروف التي خدمته ، وجعلته يختصّ بهذا الرصيد

الديني دون صاحبيه ، تمثّلت تلك الظروف في نصرانيّة الأخطل ، وفسق الفرزدق. ولم يكن تفوّق جرير فيما تفوّق فيه في فنّ النقائض - ولا يجود المقام لبسط الحديث عن ذلك - بشاعريّته ، وإنّما بإفادته من هذا الضعف الذي وجده في خصميه. وأكّد ذلك غير واحدٍ من القدماء والمحدثين ، بل هو نفسه أقرّ بذلك حينما قال : " لقد أعنت عليه بكفر وكبر سنٍّ ، وما رأيته إلا خشيت أن يبتلعني"[٣٥ ، ج٨ ، ص٣٠٩]. وقال الخليفة عمر بن عبدالعزيز : " ... إنّ الأخطل ضيّق عليه كفره القول ، وإنّ جريرًا وسّع عليه إسلامه قوله"[٣٥ ، ج٨ ، ص٣١٧]. وقد كان جرير نفسه مقرًّا بتضاؤل شاعريته أمام الأخطل ، ولكنّه في آنٍ كان واعيًا بأداة فاعلة في حسم الصراع بينه وبين الأخطل.

أمّا الفرزدق فلم يكن نصرانيًّا كالأخطل ، غير أنّه عاصٍ متمرّد على أخلاق الإسلام وقيمه ، فهو كما ذكر ابن سلام في كتابه "طبقات فحول الشعراء" أنّه أكثر أهل الإسلام تعاطيًا للفحش والفجور[٤٠ ، ج١ ، ص٤٤]، وقال عمر بن عبدالعزيز في ذلك : "عجبت من قومٍ يفضّلون الفرزدق على جرير مع عفّة بطن جرير وفجور الفرزدق وخبثه وقلّة ورعه وخوفه لله عزّ وجلّ"[٣٢ ، ج١ ، ص٣٣٢] فلم يكن غريبًا بعد هذا أن يتخذّ جرير من الفضاء الدينيّ الذي ضعف في نفس الفرزدق فضاءً مهمًّا يستقي منه مادة نقائضه ، بل كان "أمرًا مهمًّا جدًّا في نقائض جرير ونفسيّته وهو أنّ جريرًا كانت أمانيّه أن يبقى خصمه على ما هو عليه من فحش وتعهّر وفسوق وفجور حتى يجد فيه مطعنًا ، ويلفى فيه منقصة يشينه بها"[٤١ ، ص٢٠٦]. ولا يعني ذلك بطبيعة الحال أنّ جريرًا وحده من تأثّر بهذا الفضاء في نقائضه ولكنّه كان بطبيعة الحال أكثرهم توظيفًا له.

أيًّا كان الأمر فقد أفاد شعراء النقائض إفادة عظيمة من الفضاء الدينيّ في إنشاء كثير من الثنائيات الضدّيّة التي تجلو المعنى ، وتعضّد الفكرة ، وتفحم الخصم. وفيما يأتي شواهد ووقفات تؤكّد حضور الفضاء الدينيّ في الثنائيات الضدّية التي وظّفها الشعراء في بناء معاني النقيضة.

أولاً: نقائض جرير والأخطل

بدا الفضاء الدينيّ واضحًا في الثنائيات الضّدّيّة التي استعان بها جرير في هجاء الأخطل، وقد وظّف لإبراز هذه الثنائيات شتى أنواع التقنيات، واستخدم عددًا من أنواع التضاد، من طباق ومقابلة ومفارقة وصور متنافرة وغير ذلك من التقنيات التي ستكشف عنها الشواهد المنتقاة.

لم يتقوقع جرير في الدائرة الضيقة، دائرة الإسلام والكفر؛ ليكرّر أنّه مسلم والأخطل كافر؛ إذ ذاك أمر يدركه كلّ من يعرفهما، فلن يؤثّر في خصمه بهذه المعاني التي هي حقائق، وليس فيها ما يعيب؛ وإنّما حلّق بجناحيه بعيدًا عن هذا المعنى العامّ، مولّدًا منه ثنائيات ضدّيّة مختلفة، ومعاني جزئية متضادة متعدّدة، مفيدًا من مفاهيم الدينين الإسلاميّ والمسيحيّ، ومنوّعًا في إخراج هذه المعاني المتضادة، فتارة يأتي بها متضادة ظاهرة لا تخفى على أي متلقٍ، وتارة يخفيها، ولكنّها تكون مفهومة من البنية التي تشي بوجود تضاد فيها، وتارة يأتي بهذه الثنائيات متسلسلة متتابعة، وأخرى يأتي بها مفردة. فمن النوع الأوّل، قوله في الأخطل[٣٢، ج٢، ص٢٧٢]:

تَغْشَى الملائِكَةُ الكِرامُ وَفاتَنا   والتَّغْلِبِيُّ جِنازَةُ الشَّيطانِ

يُعْطَى كِتابَ حِسابِهِ بِشِمالِهِ   وكِتابُنا بأُكِفِّنا الأَيْمانِ

أَتُصَدِّقُونَ بِمارِ سَرْجِسَ وابْنِهِ   وتُكَذِّبُونَ مُحَمَّدَ الفُرْقانِ

ما في دِيارِ مُقامِ تَغْلِبَ مَسْجِدٌ   وتَرَى مَكاسِرَ حَنْتَمٍ ودِنانِ

وإِذا وَزَنْتَ بِمَجْدِ قَيْسٍ تَغْلِبًا   رَجَحُوا عَلَيكَ وشُلْتَ في المِيزانِ

تَلْقَى الكِرامَ إذا خُطِبْنَ غَوالِيًا   والتَّغْلِبِيّةُ مَهْرُها فِلْسانِ

انتظمت في هذه الأبيات سلسلة من المتضادات التي استقاها جرير من ثقافته الدينية ، فمن فكرة الطهارة والنجاسة أتى بثنائية متنافرة عميقة لم يحصرها في الأحياء فقط ، وإنّما تجاوز بها إلى الأموات ، حيث جعل الملائكة تغشى جنائزهم ، وتقابلها الشياطين التي تغشى جنائز تغلب. ولم يكتفِ جرير بجعله جنائز تغلب لا تغشاها الملائكة ، بل جعل التغلبيّ كلّه جِنازة الشيطان ، فالتضاد ليس في الطباق الذي بين الملائكة والشياطين فحسب ، وإنّما يشمل البيت كلّه ، فالملائكة بقدسيتها وطهارتها وجلالها ترعى موتى جرير وتحيطها بالرحمة والعناية ، والشياطين بنجاستها ولعنتها وسوءاتها تعبث بجنائز الأخطل وتزيدها إثمًا إلى إثمهم. وقد كان جرير دقيقًا في صناعة هذه الثنائية ، تمثّلت هذه الدقّة في اختيار الألفاظ الموحية بالمعاني المرجوة ، والمعبّرة تعبيرًا محدّدًا عمّا يريد ، فالملائكة إيحاؤها واضح ، وكذا الشياطين ، ولكن تناهت دقّة اختياره عندما استخدم عبارة (وفاتنا) لموتاهم ، و(جنائز) لموتى الأخطل ، وشتّان ما بين العبارتين من دلالة ، فالجنائز جمع جِنازة ، والجنازة الميت على السرير ، وقيل الشيء الذي ثقل على الناس فضاقوا به ذرعًا[١ ، ج٣ ، ص٢١٥] ، أمّا الوفاة فهي بمعنى الموت والمنية ، ومنها تُوفيّ فلان وتوفّاه الله إذا قبض روحه[١ ، ج١٥ ، ص ٢٥٣]. فاختيار جرير عبارة (وفاتنا) للتعبير عن موتاهم تعبير فيه احترام وتقديس لهؤلاء الموتى ، وهي العبارة القرآنية المستخدمة في الموت ، فهي عبارة مألوفة في السمع ومأنوسة عند البشر ، خلافًا لكلمة (جنازة) التي تذكّر بمنظر الميت الملقى على السرير ؛ فتترك في النفس رهبةً وشعورًا بالفزع.

وفي البيت الثاني يُنشئ الشاعر ثنائية متضادة أخرى مفيدًا من فكرة إعطاء الكتاب يوم القيامة ، كتاب الأعمال ، فجعل كتابهم يعطونه بأيمانهم ؛ ليوازي بينه وبين كتاب تغلب الذي يعطونه بشمائلهم ، والفكرة التي يريدها الشاعر واضحة ،

وهي نجاتهم من العذاب، وهلاك الأخطل وقومه. ثمّ يبني تضادًا آخر في البيت الثالث المصدّر بالاستفهام التوبيخيّ للأخطل وقومه لنصرانيتهم. فالطباق الذي أنشأه الشاعر بين (تصدّقون) و(تكذّبون) يمثّل عتبة لتضاد كبير بين أفعال كبيرة متناقضة تمامًا، لا ينبغي أن يقع فيها من كان له عقل، فالتصديق بمار سرجس وابنه يعني به الشاعر كلّ ما يتعلّق بعبادة النصارى، ويقابل ذلك التكذيب بمحمد ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ وكتابه الفرقان، ويعني بذلك كلّ ما يتعلّق بعبادة الله. ويستوحي من الثنائية المتضادة السابقة ثنائية متغايرة أخرى، وهي أنّ ديار تغلب لا مسجد فيها، ولكنّها مليئة بأديرة الخمور وبيوت الخنا. فالملحوظ أنّ الثنائيات الضدّيّة تتسلسل وتتناسل بعضها من بعض، فالأولى تولد الثانية، والثانية توحي بالثالثة، وعن الثالثة تأتي الرابعة، وهكذا دواليك، وهذه بطبيعة الحال تركت ترابطًا واضحًا في بنية النصّ، وتآلفًا قويًّا بين المعاني التي تبدو متنافرة في ظاهرها، ولكنّها بهذه المهارة الإبداعيّة تكتسب نوعًا من التمازج والانسجام.

وهذه الثنائيات الضدّيّة التي أوردها في هذه الأبيات والتي استمدّها من الفضاء الديني يكرّرها في أبيات مفردة أخرى موزّعة في نقائضه المختلفة، فمن ذلك مثلاً ما قاله عن عقيدته وعقيدة الأخطل[٣٣، ص٤٧]:

وأَدْعُو الإلهَ وتَدْعُو الصَّليبَ وأَدْعُو قُرَيْشًا وأَنْصارَها

فعلى الرغم من أن الفعل واحد في طرفي التضاد، وهو(الدعاء) غير أنّ دلالته تختلف حسب سياقه، وذلك وفق ما يفهم من الطباق الذي بين الإله والصليب، ويريد الشاعر من ذلك كلّه أنّه على حقّ في دعائه وعبادته، والأخطل على باطلٍ في ذلك. كما أنّ في الشطر الثاني من البيت ثنائية متضادة أخرى، وهي عن الدعاء نفسه، ولكنّه هنا دعاء ونصرة بالبشر، فجرير ـ كما يزعم ـ يدعو قريشًا وما شاكلها من القبائل

القويّة الشديدة البأس ، والأخطل يدعو القبائل الأخرى الضعيفة الوضيعة. ولا شكّ أنّ الطرف الأخير من هذا التضاد غائب غير أنّه يفهم من حضور الأول ، وذلك وفق ما يفهم من بنية التضاد في الشطر الأول.

ومن ثنائياته المتنافرة أيضًا التي استقاها من ثقافته الدينيّة ما عبّر به عن حال قيس الذين يناصرهم ، وهم قد عرفوا الكتاب وصدّقوا بمحمد ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ ويقابل ذلك رضا تغلب بعبادة الأوثان. قال في ذلك[٣٣ ، ص٢٠٨]:

عَرَفُوا الكِتابَ وصَدَّقُوا بِمُحَمَّدٍ ورَضِيتُمُ بِعبادَةِ الأَوْثانِ

فيُلحظ أنّ الشاعر فصّل في عبادة جماعته قيس ، فذكر معرفتهم الكتاب ، وتصديقهم بمحمّد ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ ولكنّه أجمل المعنى الذي يقابل ذلك في عبادة تغلب ؛ إذ اكتفى بعبادة تغلب الأوثان ، دون الخوض في عناصر هذه العبادة ، وربّما ذلك لأنّ إجماله أفصح من تفصيله ؛ إذ عبادة الأوثان وحدها تنهض بإقناع الناس ببطلان عبادة تغلب ؛ وفي اختياره لفظة "الأوثان" يوحي بكلّ معاني الغواية والضلال ، فمَنْ مِنَ المسلمين لا يعرف عبادة الأوثان وما يترتّب عليها من بطلان وأباطيل؟ كما أنّ اختياره لفظة" رضيتم" تشير إشارة واضحة إلى أنّ قوم تغلب وحدهم هم المسؤولون عن ذلك ؛ لأنّهم عبدوا الأوثان برضًا وقناعة.

ويشهد في ثنائية متضادة أخرى لقيس بالهداية ، ويشنّع بضلال تغلب وغيّها ، يقول[٣٣ ، ص٢٠٩]:

قَيْسٌ عَلَى وَضْحِ الطَّرِيقِ وأَنْتُمُ تَتَرَدَّدونَ تَرَدُّدَ العُمْيانِ

ففي البيت صورتان متنافرتان ، الأولى الكناية التي في قوله : (في وضح الطريق) ، وأراد بها كناية عن الهداية والرشد ، وهو ما عليه قيس ، والثانية التشبيه الذي في قوله : (تتردّدون تردّد العميان) ، وأراد به الضلال والغي الذي عليه تغلب ،

وشتّان ما بين من هو على وضح الطريق يبصر كلّ ما هو أمامه ويتبيّنه ، وبين من يتخبّط تخبّط العميان ، ويسير على غير هدى من أمره.

ومن الثنائيات المتضادة التي أنشأها جرير في هجاء الأخطل بدينه أيضًا ، ولكنّها لا تبدو ظاهرة لغياب طرف من طرفي التضاد ، قوله في عبادة تغلب للصليب وتكذيبهم بمحمّد - صلّى الله عليه وسلّم - ورسالته والملائكة ، وسائر أركان الإيمان ، قال[٣٣ ، ص٨٧] :

عَبَدُوا الصّلِيبَ وكَذَبُوا بِمُحَمّدٍ وبِجَبْرئيلَ وكَذَبُوا مِيكالا

فلا يظهر في البيت تضاد واضح على نحو ما رأيناه في الأبيات السابقة ، ولكن من البنيّة يتّضح أنّ الشاعر لا يريد إفادتنا بعبادة تغلب الصليب ، أو بتكذيبها بما ينبغي أن تصدّق به ، وإنّما يريد أن يُنكر عليهم ذلك الفعل ، ولا يفهم هذا الإنكار إلا إذا وُضِعت هذا العبادة مقابل من ينبغي أن يُعبد ، وقوبل هذا التكذيب بما يجب أن يصدّق به ، ومع أنّه لم يصرح بذلك ، إلا أنّ المعنى مفهوم ؛ فلذا لم يحتج الشاعر إلى التصريح حتى لا تترهّل البنية بعبارات لا طائلة منها.

ومثل ذلك ثنائيات أخرى كثيرة في نقائض جرير ، كالتي قالها في رجسهم وكيفية أذانهم ، حيث قال[٣٣ ، ص١٧٢] :

رِجْسٌ يَكُونُ إذا صَلُّوا أَذانُهُمُ قَرْعُ النّواقِيسِ لا يَدْرُونَ ما السُّوَرُ

فالمعروف أنّ الصلاة تطهّر المصلي وتزكيه ، وهذا معنى مفهوم من الفضاء الدينيّ ؛ فلذا لم يحتج جرير إلى التصريح بذلك ، واكتفى ببنية تحمل معنى ظاهرًا وآخر باطنًا ، فهؤلاء إذا صلوا رجسوا ، بينما المسلمون إذا صلّوا طهروا. كما أنّ ذكره أذانهم ووصفه بأنّه قرع النّواقيس مدعاة للإنكار ؛ لأنّ أذانهم يخالف أذان المسلمين ، وهو الصوت النديّ ، والنداء المتضمّن الأدعية الدينيّة المعروفة. وهكذا الأمر في صلاتهم

فهم يصلون ولكنّهم غير مدركين ما السّور التي يصلّون بها ، والمصلّي المسلم خاشع في صلاته ، مدرك ما أدّاه وعارف ما قرأه ؛ لأنّ الصلاة مناجاة للربّ. فالشاعر لم يجرِ مقابلة واضحة وصريحة بين هذه المتضادات لكنّه اعتمد على بنية لا تجهد القارئ كثيرًا في إدراك المتناقضات والمفارقات التي أرادها.

وحقًّا لقد كان جرير ماهرًا في توظيف الفضاء الدينيّ لإنشاء ثنائيات متضادة يؤدّي بها المعاني التي تخزي خصمه وتحرجه أمام المجتمع المسلم. وتارة يمزج بين الفضاءات الدينيّة والاجتماعيّة ويأتينا بثنائيات تزداد تناقضًا ومفارقة ؛ لما فيها من تهكّم وسخرية وهزء على نحو ما نجده في قوله في قوم الأخطل أيضًا[٣٣، ص٤٧]:

ولا يَتَّقُونَ مَحِيضَ النِّساءِ ولا يَسْتَحِبُّون أَطْهارَها

فهذه مفارقة عظيمة ولئيمة في آنٍ أخزى بها جرير قوم الأخطل الذين لا يأتون النساء إلا في نجاستهنّ، ولا يأتونهنّ وهنّ طاهراتٌ ، فلو اقتصر الشاعر على المعنى الوارد في الشطر الأول لما أجاد هذه الإجادة ؛ إذ إنّ إتيان النساء وهنّ في حيضهنّ قد يفعله بعض الرجال جهلاً أو لا مبالاة منهم ، ولكنّه عندما أتى بالطهر مقابل النجاسة أتى بمعنى يجعل المتلقي يشمئز من هؤلاء القوم ، وما كان للمتلقّي ليتنبّه إلى نتانة تغلب ونجاستهم إذا اكتفى الشاعر بالشطر الأول ، ولكن حينما أشار إلى أنّ رجالهم يحبّون النجاسة ، ويكرهون الطهارة ، ، أتى بمفارقة تجعل المرء السويّ كارهًا هؤلاء الرجال الذين يخالفون الفطرة السليمة ؛ بتركهم ما تألفه النفس السويّة ، وإتيانهم ما تأباه وتكرهه فضلاً عن ضرره وأذاه ، قال تعالى : "ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ، ولا تقربوهنّ حتّى يطهرن..."(٦)

---

(٦) القرآن الكريم، البقرة، آية (١٤٤).

ولا شكّ أنّ الفضاء الديني لم يكن حكرًا على جرير وحده دون صاحبيه ـ وإن كان أكثرهم ـ فقد كان للأخطل والفرزدق أيضًا نصيب من ذلك، مع تفاوت مشهود فيما بينهم. فلم يكن غريبًا أن يتأثّر الأخطل على نصرانيّته بهذا الفضاء الدينيّ؛ لأنّ ذلك كان يمثّل ثقافة مجتمع آنذاك، بجانب أنّه دين ومعتقد. فكان يتناصّ مع القرآن الكريم والحديث الشريف(٧)، يأخذ من آيات القرآن الكريم والحديث المعاني والعبارات والتراكيب، دون أدنى حرجٍ أو إنكار لذلك. غير أنّنا لم نجد شيئًا من مادة البحث المعنية بالثنائيات الضدّيّة.

ومن الطبعي ألا يكون للأخطل نصيب من هذه الثنائيات الضديّة التي يمثّل الإسلام مرجعيتها؛ وذلك لكفره الذي قيل قد ضيق عليه القول[٣٥، ج٨، ص٣٠٩]، فقلّة معانيه هنا تؤكّد تضييق الكفر عليه القول. فما كان للأخطل أن يجرؤ على هجاء جرير بدينه كما كان جرير يفعل به؛ لأنّ دين جرير دين الدولة والجماعة، فإذا هجاه به الأخطل أغضب المجتمع كلّه بما في ذلك الخليفة نفسه الذي كان الأخطل يتنعّم في بلاطه، ويرفل في نعيمه؛ فلذلك لا نجد شيئًا كثيرًا من هذه الثنائيات الضديّة المستقاة من الفضاء الدينيّ في نقائض الأخطل، ولكنّه حاول أن يعوّض عن ذلك في مواضع أخرى على نحو ما في الفضاءات الأخرى.

ثانيًا: نقائض جرير والفرزدق

إنّ حلبة النقائض تتطلب أن يكون الخصم واعيًا بسلاحه الذي يفتك بعدوه، فإفحام الخصم هو الغاية المرجوة في هذا الصراع الذي استمرّ لأكثر من أربعين سنة ـ نقائض جرير والفرزدق ـ فالدين الذي أفحم به جرير خصمه الأخطل ظلّ مصدرًا ثرًّا

---

(٧) ينظر: نبيل علي حسين، "التناصّ دراسة تطبيقيّة في شعر شعراء النقائض جرير والفرزدق والأخطل"، الأردنّ (عمّان)، كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٠م.

للثنائيات الضديّة التي شكّلها في نقائضه مع الفرزدق. لقد وجد جرير في الفرزدق ثغرة، وضعفًا في دينه وأخلاقه، وهو فسوقه ومجاهرته بالمعاصي، فكان ذاك بابًا جرّ على الفرزدق كثيرًا من الويلات وأسباب الهلاك؛ إذ ألحّ جرير كثيرًا على تعييره بتلك الصفات، منشئًا منها عددًا مهولاً من الثنائيات الضديّة التي تضع علامة فارقة بينه وبين الفرزدق، علامة تضع حدودًا واضحة بين جرير العفّ الشريف التقيّ، والفرزدق الفاسق الماجن الفاجر - كما يظهر من خطاب جرير - ففيما يأتي بعض الشواهد الدالة على ذلك. قال جرير له[٣٢، ج١، ص٣٣٢]:

أَتَيْتَ حُدُودَ اللهِ مُذْ أَنْتَ يافِعٌ وشِبْتَ فما ينهاكَ شَيْبُ اللَّهازِمِ

أتى الشاعر بالطباق بين (يافع)، و(شبت)، ولكن لا ليحقّق تضادًا على مستوى الكلمتين فقط، وإنّما ليصنع مفارقة كبرى، مضمونها التناقض الذي فيه الفرزدق، فهو قد أتى حدود الله وخالف أوامره بكلّ موبقة حينما كان يافعًا، وكان من المأمول أنّه عندما يشيب يتخلّى عن ذلك؛ لأنّ رحيله قد أزف، وأجله قد دنا، غير أنّ شيبه وتقدّم سنّه لم يزده إلا فسقًا ومجونًا.

وقد سقى جرير الفرزدق من كأسه التي صنعها بيده لنفسه، وأتاه من الباب الذي فتحه على نفسه، حيث بنى جرير كثيرًا من ثنائياته المتنافرة المتأثّرة بالفضاء الديني في هجاء الفرزدق من قوله عن نفسه[٤٢، ج١، ص٢٣٥]:

هُما دَلّتانِي مِنْ ثَمانِينَ قامَةً كَما انْقَضَّ بازٍ أَقْتَمُ الرِّيشِ كاسِرُهْ

فَأَصْبَحْتُ في القَومِ الجُلُوسِ، مُغَلَّقَةً دُونِي عَلَيها دَساكِرُهْ

فعيّره جرير بما افتخر به من هذه المعاصي تعييرًا معيبًا؛ إذ أخرج هذه المعاني من دائرة الفخر تمامًا إلى دائرة الهجاء، قال في ذلك[٣٢، ج١، ٣٣٢]:

تَــدَلَّيتَ تَزْنَــي مِــنْ ثَمــانِينَ قامَــةً   وقَــصَّرْتَ عَــنْ بــاعِ العُلَــى والمكــارِمِ

فـ(التـدّلي وقامـة وقـصّرت ، والعـلا) كـلّ هـذه متـضادات حـشدها الـشاعر في البيت ؛ ليبيّن المفارقة التي عليها الفرزدق الذي تـدلّى ليـصعد إلى الرذيلـة لا ليرتقـي إلى العلا ، فأيّ تدلّ هذا الذي لا يشبه تدلّي السادة الشرفاء العفيفين أمثال جرير.

والملحوظ أنّ جريرًا لم يقـف عنـد فسق الفـرزدق ومجاهرتـه بـالفواحش فكفـى ، ولكنّما تعدّى ذلك إلى تكفيره تمامًا وإخراجه من ملّة الإسلام. ففي ثنائية ضـديّة أخـرى يـصوّر فيهـا ديـن الفـرزدق الـذي جعلـه كـدين ليلـى ، جدّتـه لأبيـه الـتي رماهـا بقينهم كثيرًا[٣٢ ، ج١ ، ص٢١٩]:

فَــدِينُكَ يــا فَــرَزْدَقُ ديــنُ لَيلَــى   تَــزُورُ القَــينَ حَجّــا واعْتِمــارا

فهو قـد جعـل ديـن الفـرزدق كـدين جدّتـه ليلـى وكلاهمـا ديـن آخـر غـير الـدين الإسلاميّ المعـروف ، وكـذا حجّهمـا واعتمارهمـا غـير الحـجّ والعمـرة اللتـين نعرفهمـا ، فالحجّ في الدين القـويم رغبـة في الأجـر والثـواب والتطهّـر ومثلـه العمـرة ، بيـد أن الحـجّ والعمرة عند ليلى وابنها الفرزدق طلب للخنى والفحش والفجور.

وقد عبث جرير كثيرًا بدين الفرزدق ، حتى جعله يبيعـه بـأبخس الأثمـان ، تهاونًـا منه بأمره ، واستخفافًا بقدسيّته ، قال جرير في ذلك[٣٢ ، ج٢ ، ص٣٣٦]:

فَإِنَّــكَ لَــوْ تُعْطِــي الفَــرَزْدَقَ دِرْهَمًــا   عَلَــى دِيــنِ نَــصْرانِيَّةٍ لَتَنَــصَّرا

أمّا الفرزدق فقلمّا نجد في نقائضه مع جرير هـذه الثنائيـات الـضديّة المستمدّة مـن الفضاء الدينيّ ، وليس ذلك لأنّه غير متأثّر بالإسلام تأثّر جرير ؛ إذ هـو " رغـم أخطائـه وخطايـاه كـان متـأثّرًا في شـعره بالمعـاني الإسـلاميّة ، وكـثير الاسـتمداد مـن القـصص القرآني ، كثير الإشادة بجهاد الرسـول ـ صـلّى الله عليـه وسـلّم..."[٤٣ ، ص١٣] ولكنّمـا الـسبب هـو أنّ جريـرًا أغلـق دونـه هـذا البـاب عنـدما ألحّ علـى هجائـه بفحـشه وفسوقه

ومجاهرته بمعاصيه على ما بيّنا آنفًا ، فلم يجد الفرزدق ما يقوله في جرير من هجاء في دينه وأخلاقه إلا النزر اليسير كمثل قوله فيه[٣٢ ، ج١ ، ص٢٨٠]:

قَبَحَ الإِلَهُ بَنِي كُلَيبٍ إِنَّهُمْ لا يَغْدِرُونَ ولا يَفُونَ لِجَارِ
يَسْتَيقِظُونَ إلى نُهَاقِ حِمَارِهُمْ وتنامُ أَعْيُنُهُمْ عَنِ الأَوتَارِ

فالطباق في البيت الأول بين الفعلين المنفيين (لا يغدرون) و(لايفون) يصوّر جبن بني كليب وخستهم في آنٍ ؛ إذ إنّ المعروف أنّ من لا يغدر يفي ، أمّا أنّه لا يغدر ولا يفي فذلك يعني أنّ عدم الغدر ليس لطيب أصله وحسن خلقه ، وإنّما لجبنه ، ومن هذا طبعه فهو أكثر الناس جبنًا وخسة. أمّا البيت الثاني ففيه مفارقة غريبة ؛ لأنّ الشاعر بنى على الطباق الماثل بين (يستيقظون) و(تنام) مفارقة لطيفة تصوّر أمرًا غريبًا في بني كليب ، وهو أنّهم يستيقظون من نومهم العميق طلبًا لفعل الفاحشة ، وليتها فاحشة مع ممّن تتوق إليها النفس ، وإنّما مع حميرهم التي توقظهم بنهيقها ، وهم في الوقت نفسه ينامون عن أوتارهم أي يتغافلون عن الأخذ بثأرهم.

هكذا كان للفضاء الدينيّ حضور في الثنائيات الضدّيّة عند شعراء النقائض الثلاثة ، غير أنّهم تفاوتوا تفاوتًا واضحًا في تعاطيها ؛ للأسباب التي ذكرناها آنفًا. كما أنّ ثنائيات هذا الفضاء على كثرتها عند جرير لا تضاهي ثنائياته المستمدة من الفضاءات الأخرى ؛ وذلك لأنّ طبيعة النقائض تتنافى ودين الإسلام الذي يحرّم السّباب وقذف المحصنات والفخر بالأنساب والمجاهرة بالفواحش ، وغير ذلك من المعاني التي تمثّل عناصر حاضرة في تشكيل كلّ نصّ من نصوص هذا الشعر ، ولعلّ من نافلة القول أن نشير إلى أنّ هذه الثنائيات الضديّة المستمدّة من الدين لم تأتِ لتنشر فضيلة ، أو تردّ رذيلة ، بقدر ما هي سلاح استخدمه الشاعر لإخزاء خصمه ودحره.

خاتمة

تبيّن ممّا سبق أنّ نقائض جرير والفرزدق والأخطل جاءت حافلة بالثنائيات الضدّيّة، وقد تنوّعت فضاءات هذه الثنائيات من فضاءات تاريخيّة وأخرى اجتماعيّة وثالثة دينيّة، وهنا يجب الإشارة إلى أمرين مهمّين؛ الأول هو أنّ هذه الفضاءات ليست هي كلّ الفضاءات التي يمكن أن تستخلص من نصّ النقائض الغني بكمّ وافر من الفضاءات المختلفة، أما الثاني فهو أنّ هذه الفضاءات تتداخل فيما بينها تداخلاً واضحًا؛ فمن ثمّ تداخلت الأفكار التي طرحت في هذه الدراسة. كما تبيّن أمرٌ آخر وهو أنّ لكلّ من الشعراء الثلاثة نصيبًا، قلّ أو كثر من الثنائيات المتضادة المستقاة من هذه الفضاءات، وقد تفاوتوا في ذلك تفاوتًا بيّنًا كمًّا وكيفًا. ويمكن إجمال القول في هذا الجانب: إنّ جريرًا كان أكثرهم نسجًا من الثنائيات المستمدة من الفضاء الدينيّ في مواجهة الأخطل الذي حرمته نصرانيته من تعاطي هذا الفضاء، وجعلته يلجأ إلى التعويض من الفضاءات الأخرى؛ التاريخيّة والاجتماعيّة، ولكن على الرغم ذلك ظلّ جرير يشاطره ويقاسمه في كثير من ذلك بل يبزّه أحيانًا. كما فاقت ثنائيات جرير ثنائيات الفرزدق عندما تعاطت معاني الهجاء المستمدة من الفضاء الدينيّ أيضًا، والفضاء الأخلاقي بعامّة؛ وذلك لفساد أخلاق الفرزدق الذي خصم كثيرًا من رصيده أمام جرير، غير أنّ الفرزدق الذي ألفى إرثًا وافرًا من الجاه والشرف والتاريخ الناصع أمدّه ذلك بما لم يتح لجرير من الفخر بالماضي، والتباهي بالآباء والأجداد؛ ولذلك جاءت ثنائياته المتضادة في الفخر أكثر إحكامًا من جرير الذي كان يحسن الهدم أكثر من إحسانه البناء.

أمّا من حيث بنيّة هذه الثنائيات الضدّيّة في النصّ وطريقة تشكيلها فمن الملحوظ أنّ هؤلاء الشعراء ـ سيّما جرير والفرزدق ـ وظّفوا تقنيات متعدّدة وطرقًا مختلفة في

بنائها، فلم تقتصر بنيّتها في نصوصهم على بنية التضاد المعروفة لدى القدماء، المحصورة في الطباق والمقابلة، أي التضاد الجليّ بين كلمتين، أو مجموعة من الكلمات والعبارات، وإنّما بدت المهارة الفنيّة واضحة في اتّباع طرقٍ متعدّدة في تحقيق هذا التضاد الذي تارة يكون بالمفارقة، وأخرى بالصور المتنافرة، وثالثة يكون تضادًا مبنيًا على عنصري الحضور والغياب، يُفهم من بعض الأساليب التي جلبت لخدمت بنية التضاد، كالاستفهام الإنكاريّ، وأساليب التفضيل، والشرط، والاستثناء، وغير ذلك من الأساليب المختلفة التي أشرنا إليها واستشهدنا لها في هذه الدراسة. فكان هذا تضادًا خفيًا ذكيًا؛ إذ لا يظهر منه غير طرف واحد، أو ما يومئ بطرف خفيٍ إلى وجود تضاد في البيت أو النصّ.

إنّ العدد الوفير والكمّ الغزير للثنائيات الضدّيّة في النقائض - ولم نشر في هذه الدراسة إلا إلى جزء يسير منها - يؤكّد أنّ بنية التضاد بصورة عامّة ضرورة موضوعيّة وفنيّة استدعاها جوّ التوتر والصراع الذي خيّم على النصّ الأدبيّ في النقائض بعامّةٍ، فالخطاب الشعريّ في النقائض الذي صوّر الصراع العنيف الذي كان بين هؤلاء الشعراء جاء خطابًا في معظم مكوّناته وأجزائه معتمدًا على التضاد بشتى صوره وأشكاله؛ إذ إنّ هذا الخطاب معدّ - أصلاً - لإعلاء الذات وكلّ ما يمتّ إليها بصلة، وإخزاء الآخر وكلّ ما يتّصل به، فالتضاد والثنائيات متجذّران أصلاً في أسّه؛ فمن ثمّ كان من الطبعيّ أن تكون بنية التضاد من أكثر البنى الأدبيّة حضورًا في نصّ النقائض، كما أنّها جاءت خدمًا للصورة التي تتعالى قيمتها عادةً حينما يقوم المعنى فيها على حضور وغيابٍ، وهذه كانت من أبرز صور التضاد في نصّ النقائض، فشهدنا كثيرًا من الكنايات والاستعارات والصور المتنافرة عامّة التي أسهم فيها التضاد بأشكاله المختلفة إسهامًا فاعلاً في تحقيق بعديها الخيالي والجمالي.

كما يلحظ أنّ بنية التضاد أسهمت إسهامًا فاعلاً في وحدة البيت والنقيضة بعامّة، بل حققّت تناسقًا وانسجامًا واضحين بين نصوص النقائض كلّها، وهذا يعزّز ما قيل عن الثنائيات الضدّيّة إنّها تخلق نوعًا من العلاقات المتشابكة بين المعاني في النصّ الشعريّ؛ وذلك لأنّ المعنى الحاضر يستدعي الغائب؛ والضدّ يؤكّد وجود ضدّه، كما الظلّ يؤكّد وجود الجسم.

ويمكن القول في جملة واحدة إنّ هذه الثنائيات الضديّة أدّت إلى ديناميّة داخلية في نصّ النقائض، وجاءت تحمل كثيرًا من الدلالات والمعاني التي ما كان للشاعر أن يؤدّيها لولا هذه التقنية الفنية. وبفضل هذه الثنائيات جاءت النقيضة بنية متكاملة منسجمة المعاني، متناسقة الدلالات؛ فمن ثمّ كانت الثنائيات الضدّيّة أحد الأسباب التي جعلت من هذا الفنّ فنًّا أدبيًّا يقطع هذه المسيرة التاريخيّة الطويلة. إنّ التقنية المتناهية التي وظّفها الشعراء في بنية التضاد، والمعاني التي جاءت جادّة بأساليب تخرجها تارة إلى المفارقة والسخرية والتهكّم بالآخر كلّ ذلك يجعل من ظاهرة الثنائيات الضدّيّة في نقائض جرير والفرزدق والأخطل كتابًا مفتوحًا ينتظر من يلملم جوانبها في دراسة علميّة موسّعة، أو كتابٍ أفسح مجالاً، وأشمل تناولاً من هذه الدراسة التي جاءت محكومة بعدد محدود من الصفحات.

المراجع

[١] ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمّد بن مكرّم، "*لسان العرب*"، بيروت، دار صادر، ط١، ٢٠٠٠م.

[٢] الساحلي، منى علي، "*التضاد في النقد الأدبيّ مع دراسة تطبيقيّة من شعر أبي تمام*"، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس، ١٩٩٦م.

[٣] بني عامر، عاصم، *"لغة التضاد في شعر أمل دنقل"* ، عمان، دار صفاء للنشر والتوزيع، ط١ ، ٢٠٠٥م.

[٤] ابن المعتزّ، عبدالله، *"البديع"* عني بنشره وعلّق عليه: أغناطيوس كراتشقوفسكي، بيروت، دار المسيرة، ط٣، ١٩٨٢م.

[٥] البدوي، أحمد محمد، *"علامات على خارطة النقد الأدبي – مقالات"* ، ليبيا، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس، ١٩٨٩م.

[٦] قدامة بن جعفر، *"نقد الشعر"* ، ت/ كمال مصطفى، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط٣، ١٩٧٨م.

[٧] القاضي الجرجاني، علي بن عبدالعزيز، *"الوساطة بين المتنبي وخصومه"* ، ت/محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، بيروت، منشورات المكتبة العصرية، د ت.

[٨] عبدالقاهر الجرجاني، *"أسرار البلاغة"* ، قرأه وعلّق عليه/ محمد محيي الدين عبدالحميد، جدّة، دار المدني، ١٩٩١م.

[٩] عبدالمطلب، محمد، *"بناء الأسلوب في شعر الحداثة"* ، القاهرة، دار المعارف، ط٢، ١٩٩٥م.

[١٠] حازم القرطاجني، *"منهاج البلغاء وسراج الأدباء"* ، ت/ محمد الحبيب ابن الخوجة، بيروت، ط٤، ٢٠٠٠٧م.

[١١] مندور، محمد، *"النقد المنهجي عند العرب"* ، القاهرة، مكتبة نهضة مصر للطبع والنشر، د.ت.

[١٢] سلام، محمد زغلول ، *"أثر القرآن في تطور النقد العربيّ إلى آخر القرن الرابع الهجري"* ، القاهرة، دار المعارف، ط٣، ١٩٦٨م.

[١٣] عيد، رجاء "*فلسفة البلاغة بين التقنية والتطوّر*"، الإسكندريّة، منشأة المعارف، د.ت.

[١٤] مطلوب، أحمد، "*البلاغة العربيّة المعاني والبيان والبديع*"، بغداد، معهد الإنماء العربيّ، ط٢، ١٩٨٠م.

[١٥] الغذامي، عبدالله محمد، "*الخطيئة والتكفير من البنيويّة إلى التشريحيّة*"، جدّة، النادي الأدبيّ الثقافيّ، ط١، ١٩٨٥م.

[١٦] فضل، صلاح، "*علم الأسلوب ـ مبادئه وإجراءاته*"، القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط٢، ١٩٨٥م.

[١٧] ابن قتيبة، أبو محمّد عبدالله بن مسلم، "*تأويل مشكل القرآن*"، شرحه ونشره/ السيد أحمد صقر، القاهرة، دار التراث، ط٣، ١٩٧٣م.

[١٨] أبوديب، كمال، "*الرؤى المقنّعة ـ نحو منهج بنيويّ في دراسة الشعر الجاهليّ*"، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.

[١٩] ابن رشيق، أبو الحسن بن رشيق، القيرواني، "*العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده*"، ت/ محمّد محيي الدين عبدالحميد، بيروت، دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع، ط٥، ١٩٨١م.

[٢٠] وهبة، مجدي، كامل المهندس، "*معجم المصطلحات العربيّة في اللغة والأدب*"، لبنان، مكتبة لبنان، ١٩٧٩م.

[٢١] الديوب، سمر، "جماليات النّسق الضّدّي، شعر أبي العلاء أنموذجًا"، مجلة التراث العربي، دمشق، العدد (١١٠)، السنة الثامنة والعشرون، ٢٠٠٨م، "*http://www.aliraqi.org/forums/archive/index.php/t-90861.html*

[٢٢] ديفيد ديتسشس ، *" مناهج النقد الأدبيّ بين النظرية والتطبيق"* ، ترجمة محمد يوسف نجم ، ومراجعة إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٧م.

[٢٣] الدّيوب ، سمر ، *" الثنائيّات الضّدّيّة ، دراسات في الشعر العربيّ القديم"* ، دمشق ، منشورات الهيئة العامّة للكتاب ، وزارة الثقافة ، ٢٠٠٩م.

[٢٤] فضل ، صلاح ، *" نظرية البنائية في النقد الأدبيّ"* ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصريّة ، ١٩٨٠م.

[٢٥] شرتح ، عصام ، *" ظواهر أسلوبيّة في شعر بدوي الجبل"* ، دمشق ، *منشورات اتحاد الكتاب العرب* ، ٢٠٠٥م.

http://www.awu-dam.org/book/05/study05/43-A-S/ind-book05-sd001.htm.

[٢٦] أبوغالي ، مختار ، *" الشعر ولغة التضاد: الرؤية ـ الميدان والتطبيق"* ، الكويت ، حوليات كلية الآداب ، الحولية الخامسة عشرة ، ١٩٩٥م.

[٢٧] عجب الدور ، حسن ، "الصورة الفنية معيارًا نقديًّا ، *"مجلة البحث العمليّ للعلوم والآداب جامعة الدلنج ، (السودان)* ، مجلة محكّمة نصف سنويّة ، العدد الثاني ، السنة الثانية ، أغسطس ٢٠٠٥م.

[٢٨] خمري ، حسين ، *" الظاهرة الشعريّة العربيّة ـ الحضور والغياب"* ، دمشق ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، ٢٠٠٠م.

[٢٩] ابن رمضان ، صالح الهادي ، *" الخطاب الأدبيّ وتحديات المنهج"* ، المملكة العربيّة السعوديّة ، نادي أبها الأدبيّ ، ط١ ، ٢٠١٠م

[٣٠] الشايب ، أحمد ، *" تاريخ النقائض في الشعر العربي"* ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصريّة ، ط٣ ، ١٩٩٨م.

[٣١] النصّ، إحسان، *" العصبيّة القبليّة وأثرها في الشعر الأمويّ"* ، بيروت، دار اليقظة العربيّة للتأليف والترجمة والنشر، د.ت.

[٣٢] أبو عبيدة معمر بن المثنّى التيمي البصري، *" ديوان النقائض، نقائض جرير والفرزدق"* ، بيروت، دار صادر، ط١ ، ١٩٩٩٨م.

[٣٣] أبو تمام، *"نقائض جرير والأخطل"* ، عني بطبعها وعلّق حواشيها/ الأب أنطون صالحاني اليسوعي، بيروت، المطبعة الكاثوليكيّة، ١٩٢٢م.

[٣٤] شوقي ضيف، *" التطور والتجديد في الشعر الأموي"* ، القاهرة، دار المعارف، ط٩، ١٩٩١م.

[٣٥] الأصفهاني، أبو الفرج، علي بن الحسين بن محمد القرشي الأمويّ، *"الأغاني"* ، شرحه وكتب حواشيه/ عبد أ.علي مهنّا، بيروت، دار الكتب العمليّة، ط٤ ، ٢٠٠٢م.

[٣٦] الكفراوي، محمد عبدالعزيز، *" جرير ونقائضه مع شعراء عصره"* ، القاهر، دار نهضة مصر، د.ت.

[٣٧] حسنين، نبيل علي، *" التناصّ دراسة تطبيقّية في شعر شعراء النقائض جرير والفرزدق والأخطل"* ، الأردنّ (عمّان)، كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط١ ، ٢٠١٠م.

[٣٨] طه، نعمان محمد، *" جرير حياته وشعره"* ، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٨م.

[٣٩] المرزباني، أبو عبيدالله محمد بن عمران بن موسى، *"الموشح"* ، ت/ علي محمد البجاوي، القاهرة، دار الفكر العربيّ، ١٩٦٥م.

[٤٠] ابن سلام الجمحي، محمّد، *" طبقات فحول الشعراء"* ، ت/محمود محمد شاكر، جدّة، دار المدني، ١٩٧٤م.

[٤١] كرم الدين ، عبدالرحمن أحمد ، *"أثر الإسلام في شعر جرير"* ، رسالة ماجستير (مخطوطة) ، جامعة النيلين ، الخرطوم ، ٢٠٠٢م.

[٤٢] الفرزدق، *" الديوان"* ، قدّم له وشرحه/مجيد طراد ، بيروت ، دار الكتاب العربيّ، ط١ ، ١٩٩٢م.

[٤٣] عبدالواحد ، مصطفى ، *"أثر الإسلام في شعر الفرزدق"* ، الدّمام (السعوديّة) ، دار الإصلاح للطبع والنشر والتوزيع ، ط١ ، ١٩٨٢م.

The Obbosing Dualities in Contradictions of Jareer, Alfarazdaq and Alkhtal and there Effect on the Conveuance of the Poetic Meaning

Dr. Abdulrahman A. Karam Addeen
Assistant professor
Alimam Muhammad Ibn Saud Islamic University, College of Arabic
Department of literature
Ismael663@hotmail.com

(Received 1/5/1432H; accepted for publication 19/6/1432H)

Abstract. This study attempts to go beyond the general surface comparison in poetic contradiction to deep meanings which called " obbosing dualities," these meanings depend on background of poet religious, social, historical, and general cultural. He also employs the contradicting meanings in such a way that fits the nature of the dual conflict on which these contradictions are based. Again he makes use of techniques that enhance the addressee to appreate what he reads or hears.